تفسير سورة المدثر

حسين العايش البراك

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ ﴾

حقيقة القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ ﴾ [1]

القرآن الكريم هو الفيصل بين الحق والباطل، أما غيره ففيه اختلاف كبير وتصادم بيّن، ما عدا الأقوال الصادرة عن النبي ص والأئمة من أهل البيت ع التي تفسر القرآن وتشرحه، وهي بيان له وليست بمتضادة معه، أما الأقوال الأخرى فإنّ التضاد والتصادم واضح فيها، بل أنّ بعضها ينقض بعضها الآخر، روي عن الإمام الرضا ع عن أبيه موسى بن جعفر ع، أنّ رجلاً سأل أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق ع: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلا غضاضة[2]؟

فقال ع: { لأن الله لم ينزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة}[3]، ولهذا يجد الناس ضالتهم في القرآن، وكل أهل زمان من الأزمنة يجدون المبتغى فيه، والقرآن الكريم هو أحد الثقلين، من أخذ به وبعِدله الذي أكد عليه النبي الأكرم ص في حديث الثقلين نجا، {إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض}[4]، ولا يتأتى فهمه المستقيم إلاّ بالرجوع إلى الروايات الواردة عن النبي ص وأهل البيت ع، فهما الطريق لحفظ الإنسان من الضلال.

---

[1] الطارق ١٣،١٤

[2] الغضاضة: النضارة والطراءة (ها مش البحار ج ١٧ ص ٢١٣).

[3] عيون أخبار الرضا ج ١ ص٩٣.

[4] المعجم الصغير للطبراني ج١ ص ١٣٥.

إنّ كل سورة من القرآن الكريم فيها مطالب وحيثيات توصل الإنسان إلى الرقي والتكامل، وسورة المدثر من السور المكية المشتملة على معانٍ متعددة ودروس ثرة بالعطاء، ولها مغازٍ في مجالات مختلفة من حياة الإنسان.

خاطب الله تعالى المصطفى ص بعدة خطابات في القرآن الكريم، ولهذه الخطابات ظاهر وباطن عميق، غير أن بعض الناس يقْصر فهمه على الظاهر دون أن يسترعي انتباهه المعنى العميق من الخطاب.

معنى المدثر.

هذه السورة المباركة قيل إنها من أوائل السور التي أنزلت عليه ص، وتخاطبه بالمدثر، كما في غيرها من السور التي خُوطِب فيها كـ طه والمزمل، قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾[٢]، وتبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[٣].

وفي اللغة: تدثر بالثوب أي اشتمل به داخلاً فيه، والدثار هو ما يتدثر به، والمدثر هو المتدثر بثيابه إذا نام[٤]، والتدثر أخذ الرداء أو الثوب للتغطية أو الارتداء، وكان النبي ص متدثراً ومتغطياً برداء فخُوطب من قبل الله تعالى بالآية المباركة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، ومعنى الخطاب طلب القيام بإبلاغ الدعوة، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾.

---

[١] طه: ١ – ٢

[٢] المزمل: ١

[٣] المدثر: ١

[٤] لسان العرب لابن منظور ج٤ ص٢٧٦.

الآراء في معنى المدثر.

اختلف المفسرون على أقوال وآراء[1] في معنى المدثر.

الأول: التدثر المادي.

وهو الرأي المشهور، الذي فهمه أكثر الناس، ويُعنى به المتغطي بثوب أو رداء، أي أنّ النبي ص اتخذ غطاءً، فطلب الله تعالى منه أن يُلقي الرداء ويتحمل العناء وثقل المسؤولية الملقاة عليه.

الثاني: التدثر بالرسالة.

وهو أعمق من المعنى الأول، ويُفهم من خلال التعبيرات التي نعبر بها عن الإنسان إذا اتخذ مهنة وبرع فيها حتى أصبحت له دثاراً، فيقال: فلان الصفار، وفلان الحداد، وفلان العالم، وفلان النجار، تكون المهنة غطاءً، والغطاء دثاراً في عالم المعنى، فيغطي الاسم صاحبه، ويصبح الغطاء اسماً لمن اتصف به، كما تصبح الحرفة والمهنة اسماً له، وتعكس ذلك المغطى وتصبح كالمرآة من خلالها ينظر للمتغطي، وبهذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ليس المتدثر بالغطاء المادي، بل المتدثر بالرسالة، والرسالة باعتبارها عقيدة ونظام، لها ثقل ومتانة بأحكامها ومفاهيمها التي أوحاها الله للنبي ص، فتدثر ص بها وأصبحت الرسالة تغطي كل وجوده المبارك، فاندك النبي ص في رسالته، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[2]، وأصبح النبي ص يُعرف برسالته.

الثالث: التدثر بالغيبة.

أي أنه ص كان متغطياً ومتدثراً، لكن ليس بقطعة من قماش، بل مختفٍ بغيبته في غار حراء للعبادة، وغَيبَته غطته، وأصبحت دثاراً له، و المعنى حينئذٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أي الغائب لعبادة ربه، ويراد بالخطاب أن الرسالة ليست لنجاتك وحدك يا رسول الله بل لنجاة العالمين والبشرية جمعاء، لذا أُمِرَ بالإنذار، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

الرابع: التدثر بأخذ الراحة.

[1] ذكر صاحب تفسير الأمثل مضموناً لبعض هذه المعاني والآراء التي أوردناها نقلاً عن التفسير الكبير للفخر الرازي .
[2] آل عمران: ١٤٤

قد يتوانى الإنسان عندما يضع هدفاً في الوصول إليه، خصوصاً إذا كان الهدف الذي وضعه نصب عينيه من الأهداف الكبيرة، فيحاول في المراحل الأولى أن يأخذ قسطاً من الراحة كاستراحة المحارب، والنبي ص بعد أن استشعر ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه في إبلاغ الرسالة للناس كافة أراد أن يستريح، فجاءه الخطاب من الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ومعنى المدثر هو المستريح، ومعنى الخطاب أنّ الراحة لا ينبغي أن تكون لمثلك.

فالمقاتل لا يمكن أن يستريح في ساحة الحرب، رغم أنه في قمة التعب من محاربة عدوه، وكذلك النبي ص خُوطِب من قبل الله تعالى باعتباره أراد أن يأخذ استراحة محارب، فجاءه النداء من رب العالمين يا رسول الله ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، أي لا وقت للفراغ والراحة، وذلك لثقل المسؤولية الملقاة عليك.

الخامس: التدثر بالقرآن الكريم.

وهو في الحقيقة تعبير آخر عن الرسالة، غير أنّ القرآن هو الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عبّر عنه الله تعالى بالدثار، الذي غطّى الوجود الحقيقي لنبينا ص.

بعد عرض هذه الآراء المتعددة في المدثر نجد أنّ المعنى الثاني للمدثر وهو التدثر بالرسالة أولى، ويتناسب مع السورة.

وقفة مع التدثر المادي.

هناك تصور خاطئ في المعنى الأول . التدثر المادي . لابد من الوقوف عنده حيث يفهم بعض الناس أنّ الرسول ص بعد أن نزل عليه جبريل ع أخذ رداء وكان خائفاً مرتعداً، كما جاء في بعض الروايات، حيث روى صحيح البخاري أن النبي ص عندما نزل عليه الوحي في غار حراء { فرجع بها رسول الله ص يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت

على نفسي فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ص) ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي انزل الله على موسى ...}[١]، فكانت السيدة خديجة ع تهون عليه الخطب، ثم تذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وتحكي له ما جرى على النبي ص، وكان يُطمئِّن السيدة خديجة ع، وهي تُطمِّئن النبي ص، إلا أن هذا كلام لا يتناسب مع مبنانا العقدي، ولا مع الروايات الصحيحة الواردة لدينا ولا مع مقام النبوة، فعندما سأل جابر النبي ص: ما أول ما خلق الله؟ قال ص: {نور نبيك يا جابر}، روي ذلك في مصادر الفريقين [٢]، وقال إمامنا أمير المؤمنين ع في وصفه للنبي ص: { ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته}[٣]، إذن ليست المسألة كما تصورها بعض بأن لا راعي للنبي ص، بل كان أعظم ملائكة الله تعالى مقترناً بشخصيته، وهو ملك عظيم يحامي عن النبي ص ويدافع عنه بإذن الله تعالى، وإذا كان الله يدافع عن المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[٤]، فكيف بنبيه ص الذي كان إيمان الناس ولازال وكمالهم المعنوي ووصولهم إلى الخير جميعًا حتى آدم (ع) منذ أن كان، إلى أن وصل إلى المراتب العالية التي وصل إليها، كان ببركاته ص.

---

[١] صحيح البخاري ج١ ص ٣.

[٢] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج١٥ ص٢٤. وذكره القندوزي في ينابيع الموده ج١ ص ٥٦

[٣] نهج البلاغة للإمام علي ج٢ خطب الإمام ص ١٥٧.

[٤] الحج: ٣٨

إذن التصور الآنف هو أشبه بالخيال، ولا يمكن تقبل أنّ النبي ص أصيب برعب، وكان بحاجة إلى طمأنة زوجه السيدة خديجة، فذلك تصور عارٍ عن الصحة، ومقامه ص أرفع من ذلك، وهناك كثير من الشواهد التأريخية تدلل بوضوح تام على شجاعة النبي ص ورباطة جأشه، روي عن إمامنا أمير المؤمنين (ع) –الذي ترتعد الفرسان خوفاً منه في ساحة الوغى قال: {ما برزتُ لأحدٍ إلاّ وأعانني على نفسه}[١]– في شجاعة رسول الله ص قوله: {كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس اتقينا برسول الله ص و لذنا به }[٢].

وكلامه (ع) يثبت أن النبي ص بمكان مكين من اتصاله بالله وتوكله عليه وارتباطه به، حيث لا تهزه الأحداث، ولا تؤثر فيه التقلبات، فكيف يمكن أن نقبل أنه خاف ووجل إلى وصوله إلى حالة يرثى لها حتى استعان بطمأنة خديجة عليها السلام باعتمادها على أحد النصارى وهو ورقة بن نوفل! إنه قول يتنافى مع بدهيات ومسلمات في شخصية النبي ص وصفاته.

حقيقة القيام مع الإنذار.

قوله تعالى: ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ ﴾ .

يشير الأمر بالقيام في الآية إلى أنّ النبي ص أنيطت به رسالة ذات مقومات عامة في انتشال الإنسانية جمعاء ورفع مستواها على الأصعدة كافة، لذا أمره الله تعالى بالقيام والإنذار، والقيام هو تعبير متداول في مصاديق متعددة، فمن يقوم بعمل ما يقال له قائم به، وهناك قيام في مقابل القعود، وللقيام إطلاق معنوي شائع، هو التصدي لأمر ما، وأخذ العهدة بإنجازه، وأمر الله تعالى هنا جاء على هذا النحو ﴿ قُمۡ ﴾، أي لا يراد به القيام في مقابل القعود، بل يراد به حمل أعباء النبوة وثقل المسؤولية، وأن عليه القيام بهذا العبء والتصدي للمسؤولية الملقاة على عاتقه ص.

---

[١] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٩ ص ٢٢٦.

[٢] شرح نهج البلاغة ج ١٣ ص٢٧٩.

دور الإنذار في توجيهات الأنبياء.

﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾، الإنذار هو التخويف من العذاب، الطريقة التربوية العامة التي سلكها الأنبياء والحكماء والمصلحون عبر الأحقاب المختلفة والأزمنة الطويلة في التأريخ، هي التحفيز على المسؤولية عبر منحيين:

الأول: الإنذار والتخويف.

وهيئته هي: إنْ لم تفعل كذا ستكون العاقبة الوخيمة كذا.

الثاني: التبشير.

وهيئته هي: إنْ فعلت كذا فلك الجزاء الكذائي.

وإذا أمر النبي ص الناس بإقامة الصلاة قال لهم: من لم يؤدِ صلاته سيدخل النار، وسيحاسب حساباً عسيراً، وهذا نحو من التخويف، ويقول أيضاً ص: من قام بأداء الصلاة فله كذا من الثواب، وله كذا من النعيم، وهذا تبشير، وفي العادة هناك تلازم بين الأسلوبين، أي أنه في أي إبلاغ لأمر دعوي هناك إنذار يستلزم التبشير، أو تبشير يستلزم الإنذار، هذه معادلة عامة للوصول إلى إنجاز أي عمل من الأعمال، سواءً كان العمل في العبادات أو المعاملات أو في الأمور العرفية التي يقوم بها الإنسان.

الترغيب والترهيب أسلوب تربوي.

إنّ من أهم الأمور الداعية للتقيد بالإنجاز التخويف والتبشير، التخويف من عدم الإتيان بذلك العمل وذكر العواقب المترتبة على عدم القيام به، وكذلك التبشير بذكر النتائج الإيجابية والثمرات المترتبة على القيام بذلك العمل، وهو أسلوب تربوي ناجح، مارسه الأنبياء والمصلحون، ولازالت المبادئ التربوية الحديثة تعتمده، فإن من يريد أن يربي أبناءه لو مارس أحد الأسلوبين دون الآخر لكانت النتائج سيئة، أي أنه لو أفاض على ابنه النعم دون التخويف، أو خوفه بالجزاء والعقاب دون تبشير لفشل في إيصاله إلى ما يبتغيه، لأنّ عدم قرن أحد الأسلوبين بالآخر غير ناجح حسب التجارب الثابتة، وقد حاولت إحدى الدول

المتقدمة أن ترفع العقاب في التعليم، فقامت بإلغاء جميع أنماط العقاب عن التلاميذ في المدارس، لكن النتائج كانت سيئة جداً، وازدادت نسبة الفشل، وتراجعت نسبة التألق.

إذن من الضروري اقتران كلا الأسلوبين ببعضهما، ذلك هو الأسلوب الناجح على مستوى إيصال الغير إلى الأهداف المرسومة، سواءً كان في المجال التربوي للفرد أو للأمة، وسواء على صعيد المعاش أو المعاد، بمعنى أنّه في الأمور المادية أو المعنوية، لابد أن يقترن الإنذار بالتبشير والتبشير بالإنذار.

القيام بالإنذار والتبشير.

عند الرجوع للآية الشريفة – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ – لا نلحظ فيها التبشير، فلم يُقرن الإنذار بالتبشير، لكن ينبغي أن نلتفت إلى أنه يمكن القول إنّ الآية قدّمت الإنذار وافتُتحت به السورة ثم ألحق به التبشير في آية أخرى من نفس السورة بمعنى قم فأنذر بأنّ ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠﴾ [1]، بالإضافة إلى أنّ السورة من أوائل السور المنزلة، لذا كان الإنذار في بداية السورة كطريق للتخويف من العواقب الوخيمة المترتبة على عدم الانصياع إلى أوامر الرسالة، وبعد ذلك يأتي التبشير وهذا شبيه بما لو هجم عدو على مدينة من المدن فليس من المناسب أن نخاطب أهل المدينة ونقول لهم:(إنّ من يدافع يعطى كذا)، بل لا بد أن نبين لهم الآثار الوخيمة المترتبة على عدم الدفاع حتى نضعهم نصب المسؤولية ثم يأتي بعد ذلك التبشير، وهذا هو أسلوب بعض السور والآيات القرآنية التي قرنت التبشير بالإنذار أو ركزت على الإنذار ولم تقتصر عليه وحده.

[1]) سورة المدثر.

شمولية الإنذار.

يشير قوله تعالى: ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ إلى أنّ الإنذار في بداية الدعوة كان لعشيرة النبي ص الأقربين ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [١]، ويستفاد من كون السورة من أوائل السور أنّ المُنذَر خاص، وهناك من يرى أنّ الخطاب عام، لأنّ لله تعالى قال: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}(سبأ:٢٨) وقال أيضاً: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [٢]، إذن رسالة النبي ص رسالة عامة للإنسانية جمعاء.

ولابد من التأكيد على أنّ المُنذَر (بالفتح) محذوف في الآية ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾، ولا توجد قرينة على تحديده، فتصبح الآية عامة، وبحسب أصالة العموم اللفظية يكون المراد هو عموم الإنسان المكلف المخاطب من قبل الله تعالى، ولذا، نجد الخطاب عامًّا للناس في آيات متعددة من القرآن الكريم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [٣]، الخطاب في الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ عام، وكذلك الخطاب للإنسان، وقد يقال إنّ الخطابات القرآنية وإن جاءت للمؤمن أو للمؤمنين خاصة من باب التشريف، إلاّ أنها عامة، وهذا ما أكّده العلماء بأنّ غير المؤمن بالله تعالى مكلف، قال صاحب الجواهر: "لا إشكال عندنا في تكليف الكافر بالفروع"[٤].

نعم؛ الإيمان شرط في قبول الأعمال لا في التكليف، بمعنى أنّ العمل المقبول مشروط بالإيمان، ومن أراد أن يكون عمله مقبولاً عليه أن يكون مؤمناً، وإذا لم يكن مؤمناً فلا يعني

---

[١] الشعراء ٢١٤.

[٢] البقرة: ١١٩

[٣] الحجرات: ١٣

[٤] جواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي ج٤ ص٦٣.

أنّ التكليف سقط عنه، لأنّ التكاليف عامة تشمل الجميع من آمن بالله تعالى ومن لم يؤمن به.

مسؤولية النبي تجاه الرسالة.

هناك مسؤولية من قِبل النبي ص تجاه الرسالة يمكن أن نوجزها في أمور ثلاثة:

الأول: الإنذار.

من الواضح أن رسالة النبي ص إنذار لجميع المكلفين وهو ما ذكرناه آنفاً ودلت عليه الآية، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾، والقيام في حقيقته أداء المسؤولية والتعهد بإبلاغ الرسالة إلى الناس { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1].

الثاني: هداية الناس.

من وظائف النبي ص إنقاذ الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والأخذ بالتكاليف الموصلة إلى خير الدنيا والآخرة.

الثالث: تجسيد الأحكام في الواقع.

النبي ص بادئ ذي بدء منذر ومُذكِّر بأهمية أداء الشرائع الإلهية التي أُنزلت عليه والتكاليف العامة، ويحض ص الإنسانية جمعاء على الالتزام بها إذا أرادت السعادة والوصول إلى الخير، لكن ذلك لا يتحقق بمجرد إنذاره للناس فحسب، بل هناك مرتبة أعلى عبّرت عنها الآية، ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[2]، هذه المرتبة هي الذود عن حمى الشريعة وتجسيد الأحكام في عالم الواقع والتطبيق، ومسؤوليته الملقاة على عاتقه ص ليست الإبلاغ المجرد وإنما التطبيق العملي للرسالة على قدر المكنة.

---

[1] سبأ: ٢٨

[2] الفرقان ٥٢

التجسيد العملي للرسالة.

قد يُفهم من بعض الآيات ما يخالف ما ذكرناه من قيام النبي ص بالتطبيق العملي والتجسيد للأحكام كقوله تعالى: ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[١]، لكن الآية تريد التركيز على أنّ النبي ص لا يُكره أحداً على الدخول في الدين، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[٢]، لهذا أُمر أن يجسد الرسالة وأن يجعلها تأخذ منحى عملياً في المسار الإنساني ولا يكون ذلك بالإبلاغ المجرد، لأنّ الناس لن يَرعَوُوا ويسيروا في المسار الصحيح والسديد دون جهاد وتحملٍ للمسؤولية وتطبيق عملي وذود عن حمى الشريعة، إذْ أنّ هناك من سيحارب الإبلاغ والإنذار الصادر منه ص، فلابد من الجهاد والدفاع والذود، وعندما قيل له: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، أي تحمل المسؤولية بما تشتمل عليه من عناء وتعب ونصب وما تحتاج إليه من كدح وجد، فمن له رسالة في الحياة سواءً كانت على المستوى الشخصي أو الاجتماعي أو غيرهما في أي مجال من المجالات . يُدرك مسؤوليته ويعلم بأنّ نجاحه في تحمل المسؤولية يحتاج إلى قيامٍ من جهة، وإزالة للعقبات عن طريقه من جهة أخرى كي يتسنى له إيصال رسالته إلى النجاح، وذلك معنى الأمر بالإنذار.

حقيقة الموت لدى المعصوم.

يتصف الأنبياء والرسل ع بالصمود والتحدي والمجابهة القوية للجبابرة والطغاة، ولا يخافون أحداً، وقد أبان الحق تعالى ذلك، قال تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) (الأحزاب:٣٩)، فإبراهيم ع رغم أنه وحده وقد أُلقي به في النار، إلا أنه لم يُصبه خوف ولا وجل، لأنه يعتقد أنّ الله تعالى أكبر من النمرود،

---

[١] الغاشية: ٢٢

[٢] البقرة:٢٥٦

وكذا موسى ع في مقابل فرعون، أما ما ورد في شأنه ع ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[١]، فهو خوف على الدعوة، إذ أنّ الإنسان إذا خطط وقام بأعمال من أجل إنقاذ غيره قد يحصل له خوف على أعماله التي قام بها وخطط لها، وأرسى لها الدعائم، أن تتأثر بسبب عدم خبرة ذلك الغير، وليس الخوف من الشهادة والتضحية وتقديم النفس قرباناً في سبيل الله تعالى، فإنّ ذلك أمر يلتذ به الأنبياء والرسل والأئمة ع، لذا ورد على لسان الإمام علي ع {فو الله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل إلى محالب أمه}[٢]، أي كما أنّ الطفل يأنس بالتقاطه لثدي أمه ويهدأ ويرتاح باله، كذلك المعصوم ع في ملاقاته للموت في سبيل الله تعالى، والخوف الذي نخافه من الموت ناتج عن جهل وعدم عرفان حقيقي بالموت ولقاء الله تعالى.

مضامين معرفية في الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ بيّنت الآية معانٍ عالية، سوف نستعرض ثلاثة أبحاث فيها: عقدي وتربوي وأخلاقي.

الأول: العقدي.

تبين الآية المباركة أنّ الله تعالى أكبر من أن يوصف، وإذا استند الإنسان إليه، فذلك يعني أنه اتكأ على ركن وثيق وحصن منيع وملجئ ضامن، لا يمكن أن يتأثر بأي قوة أخرى، لأنّ جميع تلك القوى هي أضعف.

الثاني: الأخلاقي.

ويترتب على الجانب العقدي فإن من يرى الله تعالى أكبر من غيره، فلن يُصاب بالغرور في نفسه، لأنه يستصغر ما دون الله تعالى، قال علي ع: "عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم"(نهج البلاغة).

الثالث: التربوي.

---

[١] طه: ٦٧

[٢] الاحتجاج للطبرسي ج١ ص١٢٨.

عندما يبدأ الإنسان في مسار الكمال يجابه عقبات تقف أمام تطوره، وكل ما اجتاز عقبة قويت ملكته، وعلم بأنّ الله تعالى أكبر، حتى يصبح ذلك معتقداً تربوياً أخلاقياً عقدياً مفيداً له في جميع شؤون حياته.

الالتجاء في الآية.

إذن قد يكون معنى ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾، يا رسول الله اعتقد في حال إنذارك وإبلاغك لرسالات ربك أنّ ربك أكبر من أن يوصف، وأكبر من أن يُضاد أو يُقهر أو يُهزم، لأنه تعالى هو العظيم الأعظم الأجل الأقدر، وإذا التجأ الإنسان إلى الله الأعظم الأقدر، وفهم ذلك فهمًا صحيحًا فقد التجأ إلى القدرة اللامتناهية، وعندئذٍ لن يصاب بوجل أو خوف.

إذ السبب في عدم شجاعة الإنسان في مواقف الخوف والوجل والرهبة هو عدم التجائه إلى ركن وثيق، وعندما يصل إلى المأمن يشعر بالاطمئنان.

لهذا فإن الآية احتوت على مفهوم عميق، مضمونه قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[1]، أي إذا كان الله تعالى أعظم من كل شيء فهو يكفي من كل شيء.

حقيقة التكبير.

التكبير هو معنى أعم من التنزيه، ويراد به أنّ كل ما يُسبغ من صفات على الذات المقدسة والحق تعالى هو أعظم وأَجلّ من أن يحيط به وصف، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾[2]، فهو يساوق كون الذات المقدسة لا يمكن أن يحيط بها أحد من الخلق علمًا، لأنّ الله تعالى أكبر من أن يوصف، روي أنّ رجلًا قال عند الإمام الصادق ع: الله أكبر، فقال

[1] الزمر: ٣٦.
[2] طه ١١٠

ع: {الله أكبر من أي شيء؟} فقال: من كل شيء، فقال الإمام ع: {حددته}، قال الرجل: كيف أقول؟ قال ع: {قل: الله أكبر من أن يوصف}[١].

معاني طهارة الثياب.

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٢]، تحوي الآية معانٍ متعددة ذكرها المفسرون:

الأول: نظافة الثياب.

أي أن المعنى الحقيقي لتطهير الثياب هو تنظيفها، بمعنى أنّ الحق تعالى يأمر النبي ص أن يرتدي ثيابًا نظيفة، لأنّ النظافة في الإسلام لها أهمية كبيرة، وهي مظهر من المظاهر الحضارية الراقية، ورد عن النبي ص قوله: {تخللوا فإنه من النظافة، والنظافة من الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة}[٣]، والله تعالى أمر المصطفى ص بتطهير الثياب لتبيان أهمية النظافة، وديدنه ص ذلك، فقد روى الإمام الصادق ع عن أبيه عليهما السلام قال: {وقف رجل على باب النبي (ص) يستأذن عليه، فخرج النبي (ص) فوجد في حجرته ركوة فيها ماء، فوقف يسوي لحيته وينظر إليها، فلما رجع داخلاً، قالت له عائشة: يا رسول الله، أنت سيد ولد آدم ورسول رب العالمين، وقفت على الركوة، تسوي لحيتك ورأسك، قال: { يا عائشة إنّ الله يحب إذا خرج عبده المؤمن إلى أخيه أن يتهيأ له وأن يتجمل}[٤].

أهمية النظافة في الشرائع السماوية.

للمظهر والهندام أهمية كبيرة في الشرائع السماوية جمعاء، خصوصًا في الإسلام من ناحيتين، الأولى النظافة والثانية الجمال، أي أن الملبس النظيف الجميل يبرز صاحبه ويحببه إلى الناس، ويفرق الناس بين شخص وآخر من ناحية المظهر والهندام، فالراقي له عناية بمظهره وملابسه، لا يلبس ملبساً رثاً أو غير مرتب، والنبي ص لكونه يمثل السماء فهو

---

[١] الكافي للشيخ الكليني ج١ ص١١٧

[٢] المدثر ٤

[٣] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج ٥٩ ص٢٩١

[٤] مكارم الأخلاق ص٩٦.

يراعي الآداب العامة، ويراعي أدق وأرقى الآداب المتعلقة بثيابه وهندامه، غير أن المراد من الآية ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ليس هو تطهير الثياب بالنظافة والجمال، بل أنّ هناك معنى أعمق من ذلك.

الثاني: كناية عن إصلاح العمل.

والتعبير كنائي في الآية، حيث تُعبر بمعنى وتُريد معنى لازمًا له، كقولنا: "رجل كثير الرماد" للتعبير عن كرمه، إذ أنّ الطعام يحتاج إلى طهي وحطب، وكلما ازدادت الحاجة إلى استهلاك الطعام كانت الحاجة أكثر إلى المزيد من الحطب، ومع احتراقه يتحول إلى رماد، وزيادة الرماد كناية عن احتراق الكثير من الحطب لأجل طهي الطعام لكثرة الضيوف، فأُخذ المعنى اللازم وهذا معنى لا يفهمه الناس اليوم، لأنها كناية قديمة، لابد من إيجاد بديل عنها يتناسب مع الكرم في العصر الراهن.

وعلى هذا فالمراد من الآية هو كناية عن إصلاح وإجادة العمل، لكون العمل هو الإطار الخارجي للإنسان، وقد روي عن النبي ص: أنه كان إذا نظر إلى الرجل فأعجبه قال: {هل له حرفة} فإن قالوا: لا، قال: {سقط من عيني} قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: {لأنّ المؤمن إذا لم يكن له حرفة يعيش بِدَينه} [1].

حث الرسول على العمل.

كان النبي ص عندما يأتيه الشباب يحرص على سؤالهم عن مهنتهم وعملهم، وإذا أجاب الشاب بأنّ لديه عملًا جيدًا يُوليه عناية خاصة، لأنّ العمل من المظاهر الراقية للإنسان، ومن لا يهتم بعمله فهو لا رُقي له ولا ثقافة ولا فهم واقعي صحيح، إذْ أنّ طبيعة الإنسان السعي نحو الكمال، ومن جملة الأمور التي تُعين عليه المهنة أو الوظيفة، أما البطّال الذي لا عمل له فإنه ص لا يوليه عناية، بل يقوم بنصيحته وحثه على العمل.

[1] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج ١٠٠ ص ٩ .

علاقة الآية بالعمل.

إذن تشير الآية ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ إلى إجادة العمل وإتقانه، لكونه بمنزلة الثياب للنفس، ويدل على ذلك ورود التعبير اللغوي بما يكنى عن صلاح العمل بطهارة الثياب، عندما يُقال: فلانٌ طاهر الذيل أو طاهر الثياب، أي له عمل حسن، ويجيد ويتقن عمله، وهو تعبير يكثر في اللغة العربية[١].

المسؤولية تجاه العمل في الآية.

إذن قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ كناية عن إصلاح وإجادة العمل وهو من المظاهر التي ينبغي للمسلم أن يهتم بها، حيث إنه إذا كان في مهنة لابد أن يجيدها، فيقرأ ويفهم أسرار عمله ليُبدع، فإن كان معلماً قرأ الكتب التي يجيد بها أساليب التدريس وإيصال المعلومة لتلامذته، وكذلك الحال للمهندس والطبيب والمهني، لابد من العناية بالتطوير المستمر في مجالهم الوظيفي، ليدللوا على الرقي الحضاري، والله تعالى يريد من نبيه ص بقوله ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أن يجعل عمله التبليغي بأرقى مستوى لإيصال الرسالة السماوية إلى الناس، وهذا معنى أوضحه النبي ص عند حديثه عن نفسه بقوله ص: { أُعطيت جوامع الكلم}[٢]، أي أنّ كلامه أرقى الأساليب التي تؤثر على المستمع إيجابًا، ولا تخدش مشاعره، والآية أدب إلهي، أشار إليه النبي ص بقوله: {أدبني ربي فأحسن تأديبي}[٣]، بمعنى أنّ ما يصدر منه لابد أن يكون بأجمل صورة وأبهى هيئة.

الثالث: تزكية النفس من المعاصي.

---

[١] التفسير الكبير للرازي ج٨ ص٦٧.

[٢] روي عن محمد بن علي بن الحسين ع قال: قال النبي (ص): { أعطيت خمساً لم يعطها أحد قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب، وأحلى لي المغنم، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشفاعة}. الوسائل ج٥ ص١٠١

[٣] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج١٦ ص٢١٠.

هناك من يرى أنّ الآية ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ تشير إلى تزكية النفس من الذنوب والمعاصي، لأنّ الثياب ستر للبدن وجمال له، وأعمال الإنسان كذلك تظهره بمظهر جميل ورائق، يستهوي الناس فيصبح المعنى أنّ النفس لابد أن تكون طاهرة من الذنوب والمعاصي لتظهر بمظهر جميل لدى الناس، إذ أنّ الناس يتأثرون بالكلام الموجه من نقي السريرة، طاهر الذيل، البعيد عن المعاصي، فقد يكون الشخص أَلَّفَ عشرات المجلدات، وتحدث عشرات الساعات دون أن تكون له مصداقية فيما يقوله، تُؤثر على نفسه وسلوكه وأخلاقه، عندئذٍ فلن يكون له تأثير على الآخرين، والباري تعالى يأمر المصطفى ص بتزكية النفس كي يكون تبليغه للرسالة مؤثراً غاية التأثير.

الرابع: طول الثياب لجرها.

كانت الطبقية سائدة عند العرب بشكل كبير، وكان أصحاب الطبقة العالية والأثرياء لهم ذيول في ثيابهم تشبه ما نراه في الوقت الحاضر لدى بعض النساء في عباءتهن، وهو مظهر غير جيد، لأنّ الله يحب الاعتدال في اللباس، وكان ذلك المظهر سائداً في الثقافة العربية قبل الإسلام، لدى ذوي الثروة والجاه، يلبسون ثياباً طويلة، فأمر الله تعالى نبيه ص بأن تكون ثيابه بالمقدار المقبول، الذي يسوده الاعتدال[١]، وكونه ص صاحب رسالة لا يعطيه تميزاً على الآخرين، فيصبح كأصحاب الطبقة المتعالية، كما يتوهم ذلك العرب في ثقافتهم في تطويل الثياب، لذا كان ص مأموراً بتقصير ثيابه بالنحو المعتدل.

[١] روي عن الإمام الصادق ع في قول الله تعالى: " وثيابك فطهر " قال: وثيابك فقصر . مكارم الأخلاق للطبرسي ص١٠٣.

حقيقة تقصير الثياب.

وردت روايات في كتب الحديث لدى المسلمين باستحباب تقصير الثياب، كي لا تجُرّ على الأرض، روي عن أمير المؤمنين ع أنه رأى رجلاً يجُر ثوبه، فقال: { يا هذا قَصِّر منه، فإنه اتقى، وأبقى، وأنقى}[1]، غير أنه من المؤسف أنّ بعض المسلمين فهموا الروايات فهماً خاطئًا، فقَصّروا ثيابهم إلى نصف الساق، وليس ذلك مرادًا من الأحاديث المروية عن النبي ص، بل المراد هو الاعتدال بحيث لا تترك الثياب تجُر على الأرض كانسة للأوساخ، بالمظهر الذي كان سائداً عند العرب قديمًا، وله معنى يشير إلى التميز، وهو غير محبب من قبل الله تعالى، وقد نُهي عنه في الثقافة القرآنية والإسلامية، والمطلوب أن يكون الإنسان معتدلاً يمثل الحالة الوسطى، وعليه أن يعتني بمظهره وجماله لا أن يعتني بجر ثيابه، فيكون معنى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ توجيه للنبي ص بأن يجعل ثيابه معتدلة، تميل إلى القِصر لا إلى الطول، لأنّ ذلك من الثقافة الجاهلية التي عادت في أوساط النساء، حيث نجد نصف متر من العباءة تجرها المرأة، وهو مظهر يخالف قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، إن الاعتدال والوسطية محببان في الشريعة الإسلامية.

نعم يظهر من بعض النصوص الدالة على كراهة إسبال الثياب أنها لا تشمل النساء، وأنّ علة النهي هي الخيلاء والتشبه بالنساء، لكن لا تفيد هذه النصوص استحباب تطويل العباءة أو بعض الثياب بنحو يخرج عن المتعارف، وإليك بعض النصوص الواردة:

١- روى صاحب الوسائل وصاحب المستدرك بعض الروايات وأفردوها بباب باسم (كراهة إسبال الثوب وتجاوزه الكعبين للرجل وعدم كراهته للمرأة) (الوسائل ج ٥ ص٤١ والمستدرك ج ٣ ص٢٦٢)، والظاهر أن تطويل الثوب صفة كانت موجودة عند النساء

[1] مستدرك الوسائل ج ٣ ص١٩٤. وروي عَنِ النَّبِيِّ ص قَالَ « مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِى النَّارِ » . (صحيح البخاري كتاب اللباس باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار ج ٥ ص٢١٨).

سابقًا، ولم تعارضها النصوص، بل كان الرجل الذي يطوّل ثوبه متشبهًا بالنساء، كما في رواية سماعه بن مهران، قال ع: {إني لأكره أن يتشبه بالنساء}(الوسائل ج ٥ ص ٤٢ ح ٤).

الخامس: كناية عن تطهير الأزواج.

الثياب كناية عن الأزواج، في الأصول العامة التعبير بالثياب أعم من الأزواج، وقد استُعمل في القرآن ما يشبه ذلك، قال تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[1]، الزوج بمنزلة الستر واللباس، والعكس صحيح، فمعنى قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ خطاب للنبي ص أن يهتم بطهارة نسائه، وليس المراد هنا من الطهارة ما يقابل الخنا، لأنّ المسلمين اتفقوا على نزاهة جميع أزواج النبي ص من ناحية العرض، فهن طاهرات الذيل من هذه الجهة، لأنّ الله لا يختار لنبيه زوجة يكون عليها كلام من ناحية العرض، وجميع أزواجه نقيات الذيل، وكذلك زوجتي نوح ولوط ع، نعم هما شريرتان إلا أنهما من ناحية العرض لا كلام عليهما، والمتحصل أن قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ خطاب له ص بالاعتناء بنسائه، لارتباطهنَّ به ص، فلا بد أن يظهرنّ بأرقى مظهر أمام الناس، حيث يتناسب مع قربهنّ منه ص ويُنظر لهنَّ على أنّهنَّ يمثلنَّ أرقى مراتب التقوى والكمال، والتحلي بهذه الصفات ليس خاصاً بمن يرتبطنّ بالنبي ص، بل يشمل كل داعية وكل شخصية اجتماعية تريد التأثير، إذ لابد له من الاعتناء ببيته وأسرته، كي يمكنه التأثير بموعظته على غيره، لأنّ أبناء الداعية إذا كانوا غير متحلين بالأخلاق الحسنة في تعاملهم مع الناس، فسوف يؤدي ذلك إلى نفور الناس منه، وعدم قبولهم لإرشاداته.

التطهير العملي.

أراد الله تعالى من نبيه ص أن يكون مؤثراً تأثيراً بالغاً في المجتمع، لذا أمره بالاعتناء ببيته، وهو أمر موجه إلى كل صاحب رسالة، فمن يريد أن يرفع مستوى مجتمع من الناحية

[1] البقرة ١٨٧

الصحية وهو لا يعتني بذلك داخل أسرته، ولا يثقف أبناءه وزوجته، فإن أقواله لا تأثير لها، وهو كمن يخط على الماء، إذن ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ توجيه بإيلاء عناية بزوجاته وأبنائه وأسرته، حتى يصلوا إلى أرقى درجات التربية والذوق، وبذلك تصبح الأسرة قدوة حسنة، ولا تتأثر سلباً، فلابد للقدوة من الابتعاد عن الأمور التي تؤثر سلباً على تبليغ الرسالة وإيصال مبادئها إلى الناس.

معاني الرجز.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾ تحوي هذه الآية كثيرًا من الأبحاث الهامة والعميقة.

الرجز في المدلول اللغوي.

"الرجز" بضم الراء وبكسرها، لها إطلاقات في اللغة العربية ومعان متعددة:

الأول: العذاب.

يطلق الرجز على العذاب[١]، فيكون المراد من الآية هجر العذاب أي هجر الأسباب المؤدية إليه، ومدلولها حينئذٍ قِ نفسك من العذاب، أي من الأمور التي تؤدي بك إليه.

الثاني: القبيح.

يطلق ويراد به كل قبيح من القبائح، فيصبح من الأسماء التي تدل على عموم القبائح، فيكون اسمًا جامعًا للقبائح ومرادفًا للفظة الرجس، ومعناه حينئذٍ القذر مثل الرجس[٢] من الأفعال والأقوال، أي دع واترك القبائح من الأفعال والأقوال!، وهنا نقاط عدة جديرة بالبحث:

---

[١] لسان العرب ج ٤ ص٣٤٨ مادة (رجز)

[٢] لسان العرب لابن منظور ج٥ ص٣٥٢.

الأولى: استحالة صدور القبيح من النبي ص.

نعلم أنّ النبي ص لا يقترف القبيح ولا يرتكبه، والأمر هنا موجه له ص، وكذا الأوامر التي في القرآن وُجهت إليه ص، وأُمر أن يدع القبائح، وذلك يلزم منه إشكال، إذ كيف يُطلب منه ترك القبيح وهو ص معصوم عن كل القبائح والأخطاء!، وحينئذٍ يؤدي الطلب إلى تحصيل حاصل.

والجواب عن ذلك: أنّ هناك تفسيرًا مشهورًا ودقيقًا، معناه أن الطلب وجّه إليه والمراد به غيره، من باب إياك أعني وأسمعي يا جارة، لكونه ص لا يمكن أن يقترف قبيحاً، وعدم الإمكان لا يرجع إلى الاستحالة العقلية، بل لأنه ص يستطيع أن يعمل القبيح، وهو قادر عليه، ولكن الله تعالى جعل الأنبياء والرسل على درجة عالية، بحيث يعرفون الآثار المترتبة على القبائح، بنحو أعظم ممن درس الطب وتخصص في تأثير الفيروسات والمكروبات ورأى طعاماً في القمامة وعليه الحشرات، فلا يمكنه أن يتناول منه.

من الواضح أنه قادر على تناوله، لكنه لا يفعل أبداً، ويعود السبب إلى إدراكه الآثار الضارة المترتبة على تناوله، وكذا الحال للأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت ع، فلا يقترفون القبيح، ولا يمكن أن يصدر منهم بهذا المعنى، لإدراكهم الآثار الوضعية المترتبة على قبح القبيح، نعم، إن الإنسان بعد أن يمر بمراحل سلوكية ويربي نفسه، يبتعد عن كثير من القبائح، وينفر من الحديث في القبائح، ويخاف من ذلك، نتيجة لملكة التقوى، فلا يكذب ولا يقع في بهتانٍ للغير، وقد سمى العلماء هذه الحالة بالعصمة المكتسبة، نتيجة للارتياض الروحي، وإذا كان حال الإنسان العادي الذي مرَّ بمراحل من الجهاد النفسي والتربية السلوكية لذاته، ذلك فما بال من عبّر عنه الحق تعالى كموسى ع ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾[1]، أي أنّ الله تعالى هو الذي يربيه مرحلة بعد مرحلة، ويتولى العناية به حتى يوصله إلى

[1] طه: ٣٩

قيادة المجتمع، فهل نتعقل أي يقع مثله في القبيح رغم إدراكه الآثار المترتبة على قبحه، وهذه المسألة غاية في الأهمية؟!

الرجز خطاب تكليفي للنبي.

خاطب الله تعالى النبي ص والأنبياء والرسل بوجوب هجر الرجز، مع العلم أنهم لا يقترفون القبيح، والخطاب من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، ثم إنّ الخطاب شامل للنبي ص من جهة التكليف، لأنه ص مكلف بأن يهجر القبيح، رغم أنه لا يصدر منه، لأنّ ذاته من الذوات المقدسة، وهي المصداق الأكمل لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]، والأمر لا يرجع إلى التطهير تشريعًا، بل هو تكويني، بمعنى أنّ الله تعالى أوصلهم إلى درجة من الرؤية الواقعية للأشياء بحيث لا يقعون في القبيح، ولقد أشار الأئمة ع إلى المرتبة العالية لرسول الله ص، قال الإمام علي ع: { وَلَقَدْ قَرَنَ اَللَّهُ بِهِ ص مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ اَلْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ اَلْعَالَمِ ...}[2]، أي من بداية مراحل حياته الأولى ص جعل الله تعالى له أعظم ملائكته مقترنًا به.

الثانية: نجاح دعوة الأنبياء وترك القبيح.

هذه نقطة في غاية الأهمية، لأنّ أصحاب الرسالات والدعوات تتطلب الدعوة منهم شروطاً كي تكون ناجحة ومؤثرة متبَعة من لدُن الغير، ومن أهم تلكم الشروط أن يكون الرسول والداعي صاحب الرسالة غير مقترفٍ للقبيح، لا ظاهراً ولا باطناً، يُعرف بين الناس بطهارته ويُعبر عن هذا المعنى في العصر الحديث بحسن السيرة والسلوك، أي عندما يفتش في حياته لا يوجد إلا الجانب الإيجابي، ولا سلبية في شخصيته، كي تكون دعوته مؤثرة، فأمر الله

[1] الأحزاب:٣٣.

[2] شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١٣ ص١٩٨

تعالى لنبيه ص بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، وقد يراد منه أن يكون على درجة عالية من النزاهة والطهارة لتكون الدعوة مؤثرة غاية التأثير فيمن يُوجه إليه بالدعوة.

علاقة التأثير مع الالتزام العملي.

من يدعو الناس وهو غير ملتزم بما يدعوهم إليه فلن يتأثروا به، لهذا توصل العلماء بعد إجراء مجموعة من التجارب على أن الإنسان يمكنه أن يؤثر في سلوك الآخرين إذا كان يدعوهم عملياً بنسبة تتجاوز ٧٠%، أي أنّ السلوك والأخلاق الحسنة مع الآخرين تؤثر أكثر من ٧٠% من الأقوال التي يتحدث بها مع الناس.

إنّ ديدن الناس إذا رأوا أنّ من يدعوهم طيب وحسن الأخلاق يتأثرون به إذا تحدث بأمور طيبة وحسنة، أما إذا كان لا يلتزم بها فلن يؤثر في الآخرين، ولكي يكون الرسول ص والمعصوم ع والعالم والداعية مؤثراً في المجتمع الذي يكون في كنفه عليه أن يكون حسن السيرة والسلوك تاركًا للرجز، أي، القبيح من الأقوال والأفعال، ومجرد أن يصدر منه أقوال أو أفعال قبيحة سوف ينفر الناس منه، خصوصاً الطبقة المتدينة التي تمثل الالتزام بالشريعة، فهي طبقة لا يمكنها أن تثق بشخص يقول شيئاً ويفعل ما يعاكسه، وصدق الشاعر حيث قال:

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

فلا يمكن التأثير في الغير إلا بالالتزام سلوكياً، والأمر لا يرجع إلى مبدئٍ أخلاقيٍّ فقط، بل هو مبدأ تربوي، فمن يريد أن يُربي أبناءه على ترك التدخين وهو يتناوله لن

[1] هذا البيت ورد في عدة قصائد لعدد من الشعراء حتى خفي قائله فقيل للمتوكل الكناني وقيل لأبي الأسود الدوئلي وقد نسبه له اعني الأخير مجموعة منهم الزركلي صاحب الأعلام ج ٣ ص٢٣٦ ومنهم العاملي في حاشيته على التبيان للطوسي ج ٣ ص٤.

يستطيع أن يؤثر فيهم بحيث لا يتناولونه، أي أنّ من أراد أن يحول نفسه مصدراً للجذب فإنّ أولى الطرق للتأثير التأثير اللاّمرئي، ومعناه الالتزام الدقيق بما يدعو إليه الآخرين.

التوقيت الصحيح للدعوة.

وينبغي أن نلفت الانتباه إلى بعض الأشياء المهمة، منها أنّ الداعية ينبغي أن يعرف متى يقول الحق، وما هو الموضع المناسب له ليحدث الأثر؟ لأنه لو قال الحق في غير موضعه لكان خلاف العقل والإيمان، وهذا ما ورد في الروايات عن النبي ص: {مدارة الناس نصف الإيمان}[1]، وكذا اختيار الوقت والشخص مما له علاقة في التأثير، وأشار ص إلى ذلك بقوله: {إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم}[2]، فلا يُعطى أحدٌ أكثر من قدراته التي بها يستوعب الشيء، وهذا مبدأ عام في التعليم، فعندما نأخذ طفلًا ندخله أولاً إلى المرحلة الابتدائية ثم المتوسطة ثم الثانوية والجامعة، ولا يمكن أن يدرس المعلومات التي يدرسها طالب الجامعة وهو في الابتدائية، وإن تشابهت مسميات المواد، من هنا فإن على الداعية عندما يُعطي الفكر أن لا يزرعه في داعية أخرق لا يقدر على تمرير ما يريد، فيعطي المعلومة أو الرسالة ويزرع في الأرض السبخة أو في الزمن غير المناسب وفي المكان غير المناسب، فيحوّل الحق إلى باطل في أعين الناس أو يُصيره مرفوضاً.

وقد تحدثت طائفة من الروايات عن هذا المطلب موضحة بأن المعارف لا تُعطى لأشخاص غير قادرين على استيعابها دون مقدمات، إذ أنّ بعض الناس قد يُلقي كلاماً بطريقة مضرة يفسد به عقيدة آخرين أو أخلاقهم أو يُغير سلوكهم الحسن إلى سلوك سيء، إذن المسألة لا ترجع إلى عالم الواقع فقط، وهو عالم النفس الأمري، فلا يكفي أن تقول للغير: اترك القبيح! إذ أنّ هناك أشياءً ليست قبيحة، بل حسنة، لكن رغم حسنها تترك لما يترتب عليها من قبيح، ولابد من معرفة ذلك، أي معرفة الأمور المناسبة للمعلومة الطيبة

---

[1] البحار ج ٧٤ ص ١٤٥.

[2] البحار ج١ ص٨٥.

الحسنة، فتبادر إلى طرحها في هذا المورد المناسب، أو تحجم، لأنها لو قيلت أضرت بالسامع، أو أثرت عليه عقدياً وسلوكياً ونفسياً، لكونه لا يستوعبها، وهناك مئات من الأمثلة، لأن بعض الناس من طبيعتهم الاحتياج إلى تعليم قد يستغرق سنوات طويلة، وبرمجة تفتح له آفاقًا نفسية، وكثير من الناس يظن أنّ الأشياء تأتي بين ليلة وضحاها، غير أن الأمر ليس كذلك، فمن أراد أن يكون متديناً يحتاج أن يجاهد نفسه ويتعب ويمر بسنوات طويلة كي يكتسب ملكة التدين، وكذا من يريد أن يصبح عالماً.

نعم، هناك طرق ووسائل وآليات للوصول إلى النجاح، وكان الأنبياء والرسل يعرفون طريقة التعامل مع الغير، وذلك سر نجاحهم في دعواتهم وخلودهم لدى البشر، من نوح ع إلى النبي محمد ص، الذي هو أعظم شخصية خلقها الله تعالى.

خلاصة الآراء في الرجز.

ظن بعض الناس أن المراد من الرجز في ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ هو القبيح بلحاظ عالم النفس الأمري، أي القبيح في الواقع، وهذا غير صحيح، بل المراد منه القبيح في بعض الأشياء، أي ما يحقق العذاب في بعض الأشياء، فأحياناً يصدر من الإنسان شيئ ما يؤدي إلى إهلاك مؤمن، أو إفساد فكره وعقيدته، بالخصوص إذا أُعطيت بعض المعلومات دون مقدمات، وهو ما يُعرِّض من فعل ذلك إلى العقاب من الله تعالى والابتلاءات الكثيرة التي قد لا يخرج منها، وقد يؤدي ذلك إلى التيه، كما عاش بنو إسرائيل التيه في عالم المعنى، لا في عالم المادة، فيضيع المرء ولا يصل، بمعنى إذا كان الله تعالى قد رتب الأمور كي يصل الإنسان إلى درجة من الإيمان بتقوى الله تعالى، فيجد أنه بسبب ما فعل بذلك المؤمن يُمنع من الوصول إلى تلك المرتبة التي يطمح أن يصل إليها، والآية ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ من غرر الآيات بالمعنيين (هجر العذاب وترك القبيح)، خصوصاً المعنى الأول، أي هجر العذاب بترك الأسباب المؤدية إليه.

كل من سار على طريق واجه عقبات، ولكن مع ذلك لابد أن يسعى جاداً في إزالة العقبات، حتى يصل إلى الهدف والغاية التي ينشدها، ولعل هذا معنى ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾، وهناك معنىً ثالث للرجز بمعنى النجاسة، غير أن هذا المعنى يندرج إما في المعنى الأول (الأسباب المؤدية للعذاب)، أو المعنى الثاني (ترك القبيح).

المعنى اللغوي للمن والاستكثار.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، المن في اللغة هو ذكر ما يُنغص المعروف[1]، تتحدث الآية عن ذكر الإنسان ما يقدمه للغير من إحسان، وأنه سبب في وصول المُحسَن إليه إلى ما وصل إليه، ويفسر ذلك قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾[2]، بمعنى أنهم السبب في انتشار الإسلام وبالتالي علوّ الذكر للنبي ص هو إيمانهم بالإسلام، أما معنى "تستكثر" أي تحسبه كثيراً وتراه عظيماً، ينهى الله تعالى الرسول ص عن المن بما يقدَّمه من عمل، وأن يستكثره، أي يَعُده كثيراً.

المعاني التفسيرية للآية.

وقد فُسرت الآية بمعان متعددة:

الأول: ترك المن بالنعم الإلهية.

أي أنّ النبي ص بعد أن أُمر من قبل الله تعالى بإبلاغ الرسالة، وأمر بتكبيره تعالى، وبتطهير ثيابه، وهجران الرجز، وهي أعمال عظيمة وكبيرة، أُمر أيضاً بأن لا يعدّ ذلك ويحسبه كثيرًا، فيمنّ به على غيره.

---

[1] تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الطبرسي ج٢ ص١٨١.

[2] الحجرات: ١٧.

الثاني: ترك المن بالرسالة.

والآية ناظرة إلى الرسالة لكون النبي ص هو السبب في إيصال الخلق إلى الحق تعالى، وهو شيء عظيم، لكون ما يصدر من الخلق يكون النبي ص واسطة وسبباً في تحققه، فتكون أعماله ص خيراً متصلاً لا انقطاع له ولا نفاد، فإذا التفت النبي ص، ورأى أنّ إبلاغ الرسالة بما يترتب عليها من خيرات شيئاً كثيراً، فإن التفاته إلى ذلك غير جيد، فأمره الله تعالى أن لا يلتفت إلى ذلك المعنى، أي لا يعُدَّ إبلاغه لرسالات ربه كثيراً.

الثالث: ترك طلب الزيادة.

أي تكون الآية ناظرة إلى طلب الزيادة في الأمور المالية، بأن لا يعطي المال ويأخذ زيادة عليه، فيكون رباً حرمه الله تعالى، ومعنى "لا تمنن" حينئذٍ أي لا تعطي مالاً وتطلب زيادة عليه، لأنه ربا في المال[١].

ولعل الأوضح الأنسب بالآية المباركة أن تكون ناظرة إلى مسألة إبلاغ الرسالة، فكل عامل بأوامره يؤجر النبي ص لكونه السبب في إيصاله إلى الحق تعالى، فمن صلى رجع فضل صلاته إلى رسول الله، ومن قام بعمل صالح كان ثوابه راجعًا إليه ص، وكذا الحال فلا يتحقق عمل خير إلاّ ويكون الرسول ص سبباً فيه، وهذا شيء لا حدود له، فأُمر النبي ص أن لا ينظر إلى جانب الكثرة فيما يتحقق من إبلاغ رسالات ربه، ولا ينظر إلى الكثرة المتحققة من الخيرات التي لا نفاد لها، وهو أمر جدُّ هام، يحتاج إلى إيضاح، ذلك أنّ الناس الذين يصلون إلى مراتب عالية ومقامات سامقة، يترتب على أعمالهم خيرات، لكونهم وسائط في ترتب الخير، وقد يلتفت بعضهم إلى أهمية ما يقوم به من عمل، فينظر إليه دائمًا، بل قد ينسب لنفسه حصول الأشياء، ويؤكد على سببيته فيما يترتب من خيرات للآخرين، ويَعُدُّ ما صدر منه كثيراً حيث يوجب لدى الآخرين الذين يستمعون إلى ما يصدر منه منةً، ويرون أنهم دائماً في حال منقصة، لذلك يكون مورداً للمؤاخذة وعدم الارتياح من لدن الآخرين، ولا بأس أن يقول النبي ص: {أنا سيد ولد آدم، ولا فخر}[٢]، فإن الإنسان قد يضطر أن يذكر في مورد

---

[١] الآراء الثلاثة في تفسير مجمع البيان للطبرسي ج١٠ ص١٧٦.

[٢] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج٨ ص٤٨.

أو موردين بعض الأمور المرتبطة بشخصه، إلا أن عليه أن لا يكون كذلك دائمًا، لأنّ ذلك غير مستحسن لدى السامع، فإذا تحدث العالم عن علمه دائماً، وقال: أنا العالم، وأنا الذي لا أُضاهى، وأنا فعلت كذا، أصبح غير مقبول اجتماعياً من لدن المستمعين لأقواله.

المبدأ الأخلاقي في القيادة.

هناك مبدأ أخلاقي يتمثل في أنّ الناس يريدون من القائد أن يُقدم وأن يعطي كثيراً، ويستقل ما صدر عنه من أعمال، حتى تتجذر قيادته وتأثيره وينصاع الناس لأوامره، وإذا لم يكن بهذه المثابة رفضه الناس حتى وإنْ كان من العمالقة في قيادته، لأنه كما ذكرنا فإن من يركز على شخصيته ويدور في محور ذاته لن يكون مقبولاً ولا مؤثرًا من الناحية الأخلاقية، والعكس صحيح فإن من يستقلل ما صدر منه من أعمال ويرى نفسه أقل الناس فيما صدر عنه، رغم أنه قدّم كثيرًا، سوف يكون مؤثرًا ومقبولًا لدى الآخرين.

النبي يتواضع للأمة بإنجازاته.

لقد كان الرسول ص قائداً فذاً في تعامله مع غيره، يمدح الآخرين، ويبين أنّ ما قدمه لهم قليل، وهناك شواهد كثيرة على هذا الأمر، منها موقفه عند إعطائه أموال كثيرة لأهل مكة من الغنائم في غزوة الطائف، حيث أعطى الغنائم لأهل مكة ولم يُعطِ الأنصار شيئاً، فاعترض بعض الأنصار على ذلك، فجمعهم النبي ص في محضر سعد بن عبادة، وقال لهم في معالجة هذا الموقف: يامعشر الأنصار: ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟! قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال صلى الله عليه وآله وسلم: أما والله لو شئتم لقلتم، فلصُدِّقتم ولصَدَقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا . شيء

قليل من الدنيا ـ تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتفرقوا][1].

تصرف النبي ص وموقفه غاية في الإحكام، ودليل على عظمته كقيادي بارز، حيث عدد لهم ما قدمه من إنجازات، لكنه لم يسكت، بل أبدى لهم أنهم شركاء معه في الإنجاز، وأن لهم فضلًا، أما قوله ص: {لو شئتم لقلتم، فلصُدِّقتم ولصَدَقتم}، فهو تبيان بأن القائد الناجح لا ينظر إلى ما يصدر عنه من أعمال، وأنه خيرٌ لا حدود له، ويلغي بذلك دور غيره، إنها نظرة أسوأ ما تكون من القيادي الفذ، حيث يرى نفسه وأعماله ويلغي دور غيره، والنبي ص أوضح أنّ الجماهير المقودة قدّمت وأعطت وضَحّت، فأشاد بدورها، ولعل الآية تومئ إلى ذلك ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾، أي إلى أهمية أن يكون القائد يستقل أعماله، ولا يمن بها فيحسبها كثيرة، لتكون قيادته قطب الرحى، يدور في فلكها الناس، وهو مبدأ أخلاقي عظيم.

المبدأ العرفاني في القيادة.

هناك مبدأ عرفاني أهم من المبدأ الأخلاقي، رغم أنه يتصل به ويتقاطع وإياه، يتضح هذا المبدأ العرفاني في أنّ الأولياء الذين لهم اتصال وثيق بالله تعالى كلما اشتد اتصالهم به تعالى قوي وثبت، وترتب عليه خيرات كثيرة لا حدود لها، ومن جملة تلك الخيرات أن لا يرى العارف أعماله، بل يرى الله تعالى، وكلما صدر عنه من خير لا يراه، بل كل ما تراه الناس كثيراً وعظيماً يستقله ولا ينظر له، ولا إلى ذاته، أو إلى أعماله، بالرغم من عظمتها، فضلًا

[1] السيرة النبوية لابن هشام ج٤ص٩٣٥.

عن النظر إلى ترتب خيرات عليها، ولعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[١]، بمعنى أنّ الكامل لا يرى أعماله، بل يرى أنّ التوفيقات والخيرات والعطايا والمنح والمنن والنعم التي تصدر منه إنما هي بفضل الله تعالى، الذي وفقه إليها، ولولا فضله عليه لما أمكن أن يصدر منه عمل طيب يستفيد منه الناس.

الرسول مصداق المبدأ العرفاني.

الرسول ص لا يرى أن ما تحقق منه شيئ، بل يرى الفضل كله لله تعالى، ولا فضل له أبداً، وهذه نظرة أعمق من النظرة الأخلاقية، تبتني على أنه كلما تكامل الإنسان كلما انمحت إنيته، وتلاشى وجوده، وأصبح لا يرى إلاّ الله تعالى، قال أحد العرفاء في هذا المجال: "فقلت ما أذنبت" أي يا إلهي لا ذنب لي، فقالت النفس مجيبة له: "وجودك ذنب لا يقاس به ذنب"، أي كونك تنظر إلى نفسك، وتحقق هوهويتها[٢] في قبال الحق تعالى، شيء فيه من الكبرياء وهي لله وحده، لذا فإن الأولياء لا ينظرون إلى ذواتهم ولا إلى ما صدر منهم من أعمال خيرة.

---

[١] النحل ٩٦

[٢] الهوهوية: هي الاتحاد في جهة ما مع الاختلاف من جهة ما وهذا هو الحمل، ولازمه صحة الحمل في كل مختلفين بينهما اتحاد ما، لكن التعارف خص إطلاق الحمل على موردين من الاتحاد بعد الاختلاف: أحدهما: أن يتحد الموضوع والمحمول مفهوما وماهية، ويختلفا بنوع من الاعتبار، كالاختلاف بالإجمال والتفصيل في قولنا: " الإنسان حيوان ناطق "، فإن الحد عين المحدود مفهوماً، وإنما يختلفان بالإجمال والتفصيل، وكالاختلاف بفرض سلب الشئ عن نفسه، فتغاير نفسه نفسه، ثم يحمل على نفسه لدفع توهم المغايرة، فيقال:" الإنسان إنسان "، ويسمى هذا الحمل ب " الحمل الذاتي الأولي " وثانيهما: أن يختلف أمران مفهوماً ويتحدا وجوداً، كقولنا: " الإنسان ضاحك " و" زيد قائم "، ويسمى هذا الحمل " الحمل الشائع الصناعي (بداية الحكمة العلامة الطباطبائي ص ١٣٢).

المنة من الله على الخلق.

وحينئذٍ فمعنى ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تنظر إلى جانب المنة، لأنه لا مِنّةَ لك على أحد من الخلق، فإن المنة من الله تعالى، فإذا لم تكن منك، فكيف تعدها كثيرة ولا شيء يرجع إليك منها، إذ الأشياء ترجع كلها إلى الله تعالى، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]، يفرح الإنسان بفضل الله وبرحمته وبنعمته وعطاياه، ودون ذلك فمهما كانت له من قدرات ومواهب وإمكانيات، وهو لا يسندها إلى الحق، ولا يراه أنه الموفق والمعطي والمانح المنان، فلن يستقيم، إذن الآية ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي لا تمن أبداً، والأعمال التي تقدمها لا تجعل فيها مِنة على الغير، ولا تلتفت إليها، بل انظر إلى أنها من الله تبارك وتعالى، وقد حصلت لك بفضله ورحمته.

تعدد الآراء حول الشخصية الواحدة.

للناس قراءات مختلفة، كما مر علينا في موقف رسول الله ص عندما قَسَّمَ العطايا، وتأثر بعض الأنصار ووجد في نفسه تجاهه ص، وإذا كان الرسول ص اتُخذ في حقه ذلك، فإن سائر الناس أولى أن يقرأوا بقراءات مختلفة، من هنا فإن كل من قام بعمل سيجد اختلافًا للناس في قراءته، أحدهم يراه حسنًا، ويتعجب بقوله: ما شاء الله، ما أكثر صدور الخيرات من صاحبه، وآخر سيقول: إنه رياء، وثالث سيصفه بأنه لم يصدر إلا لإثبات الشخصية في المجتمع، ورابع قد يحسده، والخامس قد يحقد عليه، لأنّ الناس يختلفون في طبيعتهم، الكامل منهم وهو من وصل إلى مرتبة عالية يفرح إذا رأى خيرًا صدر من أي إنسان ويتمنى الزيادة له، أما من لم يصل إلى هذه المرتبة قد ينظر نظرة استغراب، وتكون له

[1] يونس ٥٨.

قراءة مختلفة ناتجة عن نقصٍ في شخصيته، وكما قيل (وكل إناء بالذي فيه ينضح)[١]، أكثر الناس لم يصلوا إلى مراتب راقية، لذلك يصدر منهم الحسد والحقد وغير ذلك، نعم، عندما يموت المحسود يتغطى بستار، فيمدح ويشاد به وبإيمانه وعمله وإنجازاته، أما إذا كان حيًا قد تجد أن أقرب الناس إليه أشدهم عداوة له، هذه نظرة الناس الناقصة، من هنا قد يكون من يعاديك مؤمنًا، لكنه ليس بكامل في إيمانه، وقد يكون طيبًا صاحب خير ومن أهل الجنة أيضاً، لكنه يعاديك ويذمك لوجود نقص عنده من جانب معين.

دور الناس في الوصول للكمال.

تفصح بعض الروايات إلى اختلاف مراتب الكمال في جوانب متعددة، من هنا يصبح الاختلاف بين بعض الصالحين طبيعيًا نتيجة لتفاوت الكمال والاختلاف فيه، وإليك بعضها:

منها: ما عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بالزيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله، قلت: وإن للايمان درجات ومنازل يتفاضل بها المؤمنون عند الله ؟ فقال: نعم، قلت: صف لي ذلك رحمك الله حتى أفهمه، قال: ما فضل الله به أولياءه بعضهم على بعض، فقال: " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات " (٣) الاية وقال: " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " (٤) وقال: " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة أكبر ؟ جات " (٥) وقال: " هم درجات عند الله " (٦) فهذا ذكر درجات الايمان ومنازله عند الله (٧).

بحار الأنوار ج٦٦ ص ١٧١

وعنه عليه السلام قال: قلت: له: إن للايمان درجات ومنازل يتفاضل المؤمنون فيها عند الله ؟ قال: نعم، قلت: صفه لي رحمك الله حتى أفهمه: قال: إن الله سبق بين المؤمنين كما يسبق بين الخيل يوم الرهان، ثم فضلهم على درجاتهم في السبق إليه، فجعل كل امرئ منهم على درجة سبقه لا ينقصه فيها من حقه ولا يتقدم مسبوق سابقا، ولا فضول

[١] مثال يضرب – شرح العينية للفاضل الهندي

فاضلا، تفاضل بذلك أوائل هذه الامة أواخرها ولو لم يكن للسابق إلى الايمان فضل على المسبوق إذا للحق آخر هذه الامة أولها نعم ولتقدموهم إذا لم يكن لمن سبق إلى الايمان الفضل على من أبطأ عنه، ولكن بدرجات الايمان قدم الله السابقين، وبالابطاء عن الايمان أخر الله المقصرين، لانا نجد من المؤمنين من الآخرين من هو أكثر عملا من الاولين وأكثرهم صلاة و صوما وحجا وزكاة وجهادا وإنفاقا، ولو لم يكن سوابق يفضل بها المؤمنون بعضهم بعضا عند الله لكان الآخرون بكثرة العمل مقدمين على الاولين، ولكن أبى الله عز وجل أن يدرك آخر درجات الايمان أولها، ويقدم فيها من أخر الله، أو يؤخر فيها من قدم الله، قلت: أخبرني عما ندب الله المؤمنين إليه من الاستباق إلى الايمان ؟ فقال: قول الله عزوجل: " سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله (١) " وقال: " السابقون السابقون اولئك المقربون (٢) " وقال: " السابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه (٣) " فبدأ بالمهاجرين الاولين على درجة سبقهم، ثم ثنى بالانصار، ثم ثلث بالتابعين لهم باحسان، فوضع كل قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده، ثم ذكر ما فضل الله عز وجل به أولياءه بعضهم على بعض فقال: " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم فوق بعض درجات (١) " إلى آخر الآية، وقال: " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض (٢) " وقال: " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٣) " وقال: " هم درجات عند الله (٤) " وقال: " ويؤت كل ذي فضل فضله (٥) " وقال: " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله (٦) " وقال: "وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه و مغفرة ورحمة (٧) " وقال: " لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا (٨) " وقال: " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات (٩) " وقال: " ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب " إلى قوله: " إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٠) " وقال: وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله (١١) " وقال:

"فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (١٢) " فهذا ذكر درجات الايمان ومنازله عند الله عزوجل (١٣).

وعنه عليه السلام قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا بني اعرف منازل الشيعة على قدر روايتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدرايات للروايات يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان، إني نظرت في كتاب لعلي عليه السلام فوجدت في الكتاب: أن قيمة كل امرئ وقدره معرفته، إن الله تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقول في دار الدنيا. كتاب زيد الزراد، عنه عليه السلام مثله.

وعنه عليه السلام أنه قال: حديث تدريه خير من ألف ترويه، ولا يكون الرجل منكم فقيها حتى يعرف معاريض كلامنا، وإن الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجها لنا من جميعها المخرج.

ولعل ما يؤيد ما ذكرناه قول الإمام زين العابدين ع:{ والله لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله}[١]، لأنّ درجات الكمال تختلف، فكل واحد يقرؤك بقراءة مختلفة عن الآخر، من هنا يحتاج المؤمن إلى شيء من المرونة والتسامح، فإذا قُرأ بقراءة خاطئة قال لمن قرأه: اللهم اغفر له وبارك عمله ووفقه. فإنّ أكثر الذين يصلون إلى مراتب عالية وعظيمة هم الذين يسيرون في هذا المسار وفي هذا الصراط، فلا يحملون غِلاً على الغير ولا حقداً ولا ضغينة ولا حسداً، وإذا سمع كلاماً غير جيد حتى من أقرب الناس دعا له بالتوفيق وسامحه، وسأل الله أن لا يؤاخذه بما قال فيه، وهناك شواهد كثيرة للكاملين الذين تألقوا، ومن أعظمهم الشهيد الصدر والسيد الطباطبائي (رحمة الله عليهما)، فإن السيد الصدر له أخلاق عالية، وقد سمع أنّ بعض طلاب العلم تحدث عنه بكلام غير جيد، فما كان منه إلا أن وصفه بأنه طيب مؤمن ولو تقدم لصلاة الجماعة صلى خلفه، يريد (يرحمه الله) أن يبين أنّ من تحدث بهذا الكلام السيئ قد يكون لكلامه ما يصححه شرعًا.

---

[١] الكافي للشيخ الكليني ج١ ص ٤٠١.

إذن لابد للمؤمن أن ينتبه إلى مساره العملي، كي لا يدور في حلقة مفرغة، ويتيه كما تاه بنو إسرائيل، ومن أراد أن يتقدم عليه أن يجتاز هذه العقبة، ويرى الناس طيبين ويحسن الظن بهم، حتى يفتح الله له الآفاق الرحبة، وعليه فإن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ فيه لمسات عرفانية وأخلاقية كبيرة.

حقيقة الصبر.

بعد الأوامر السابقة والنهي الموجه له ص أُمر بالصبر قال تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾، أي لوجهه تعالى اتخذ الصبر جلباباً، وينبغي هنا أن نلتفت إلى معنى الصبر أولاً، ويمكن أن يقال إنه قوة التحمل مع ديمومة واستمرار في العمل الشاق.

دور الصبر في الوصول للكمال.

كثير من الناس يعمل عملًا طيبًا، لكنه لا يصل إلى نتائج، وقلة منهم يصل إلى نتائج كبيرة، ويعود السبب إلى الصبر، فمن صبر وصل إلى النتيجة وظفر بالحصول على الغاية التي كان يتوق الوصول إليها، قال بعض العلماء: إنّ الفارق بين القادة الذين غيروا وجه التأريخ وغيرهم هو الصبر، كما أنّ الفارق بين المنتصر والمهزوم هو في قوة التحمل للوصول إلى النتيجة، إذن للصبر أهمية كبيرة في الوصول إلى النتائج العظيمة والكبيرة، التي قد تغير وجه التأريخ وترسم مستقبل الإنسان، ولهذا نرى أن الناس الذين يعملون ويصبرون يتألقون في أي مجال من المجالات، فمن أراد التألق في صنعة أو حرفة أو فن أو علم عليه أن يطور المهارة والقدرة ثم يصبر، وكلما ازداد صبراً وتحملاً كلما استطاع أن يتألق في ذلك المجال، وأن يبدع فيه.

الفارق بين النجاح والفشل.

يرجع الفرق الجوهري بين النجاح والفشل إلى الصبر، فله أهمية فائقة، ويكفينا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴾[1] أي أنّ الله تعالى يعطي الصابر دون حساب، تارة يحصل المرء على نتيجة العمل، ويُعطى عشر حسنات أو سبعمائة حسنة، لكنه عندما يعمل ويصبر فحينئذٍ سيُعطى من دون حساب، وهو ما نراه في سيرة العلماء الذين صبروا واستمروا في صبرهم إلى أن وصلوا إلى درجة عالية من العلم رغم الظروف التي تضادت معهم في مسارهم.

العلامة الطباطبائي العالم الصابر.

لعل من أبرز العلماء الذين صبروا وتحملوا الشدائد حتى وصلوا إلى مراتب كبيرة السيد الطباطبائي، صاحب الميزان، فقد كانت ظروفه شاقة، لكنه صبر إلى أن وصل إلى هذه الرتبة العلمية العالية، حيث ترتب على علمه آثار كبيرة وخيرات لا حدود لها إلى يوم الدين، ويكفي أن الشهيد المطهريّ (رحمه الله) تخرج على يديه، وتفسيره الميزان اشتمل على أبحاث ومعارف باهرة.

إذن فإنّ الصبر يحقق للإنسان نتائج وهبات وعطايا دون حساب، وهناك حسنات وخيرات تعود على العلماء بمؤلفاتهم لتلامذتهم لا حدود لها، وهي صدقات جارية، إذ كل من تعلم واستفاد من علمهم رجع خيرٌ إليهم.

[1] الزمر: ١٠.

النبي وتحمل المشاق.

اتضح أنّ الفارق الأساس بين الناجح والفاشل في الصبر، فمن يعمل ولم يحصل على نتيجة فذلك يعود إلى جزعه وسآمته، أما إذا كان روحه متفائلة واتخذ الصبر جلباباً، فسوف ينجح، خصوصاً إذا اقتدى بالنبي (ص) في تحمل المشاق، فإنه ص تحمّل ما لم يتحمله أحد من الأذى، ولعل مقارنة بسيطة بيننا نحن طلبة العلم وبينه (ص) توضح الفرق، فنحن نتحمل مشاقاً بسيطة ومع ذلك يصيبنا الملل والسآمة، بينما كان النبي (ص) يتعامل مع جُفاة غلاظ حادِّي الطبع، وكلما ازدادوا له أذىً قال: { إنما بعثت رحمة، رب اهدِ أمتي فإنهم لا يعلمون}[١]، كان ص يدعو لهم رغم عظم الإيذاء بينما لو حصل لأحدنا جزء بسيط من ذلك لتألم أشد الألم، نعم؛ مع ملاحظة أنّ النبي ص على خلق عظيم، ولديه سمات وركائز في شخصيته، لا يمكن أن تتوافر في شخصية غيره، قال الأزري:

قلب الخافقين ظهراً لبطن فرأى ذات أحمد فاجتباها[٢]

أي أنه لا وجود لمثل شخصيته ص ، وقال فيه أيضاً:

لست أنسى له منازل قدسٍ قد بناها التقى فأعلا بناها[٣]

أي أنّ ذاته (ص) في قدسها وطهارتها لا مثيل لها ورغم ذلك أُمر بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾، أي لابد أن تصبر إذا كنت تريد الوصول إلى نتائج طيبة للرسالة التي بلغتها.

---

[١] البحار ج١٧ ص٢٧٦

[٢] هو محمد كاظم المعروف بالملا ابن الحاج محمد الازري البغدادي التميمي ولد في بغداد في ١١٤٣هـ وتوفي في ١٢١١هـ

[٣] أعيان الشيعة ج ٩ ص١٧.

طلاب العلم والصبر.

وعليه فإنّ طلاب العلوم الدينية إذا أرادوا رفع المجتمع في المجال الثقافي والإيماني أو في أي مجال من المجالات فلابد لهم من التخطيط الدقيق والعمل بكدح والصبر، إذْ لا يمكن قطف الثمار عاجلاً بل قد تأتي أجيال بعدنا لتقطف ثمار أعمالنا.

إكمال التعليم للشباب.

من المؤسف أن نرى بعض الشباب لا يكمل تعليمه، ويتعلل بأنه لا يقدر أو لا يتحمل ذلك، بسبب موقف مع أستاذ وأحياناً يتعذر بأعذار واهية، وليس ذلك من سمات الناجحين، لأنّ طريق النجاح ليس مفروشاً بالورد، بل بالشوك، فمن يمشي على الشوك هو من يصل، رغم تألمه ولا يحصل ذلك إلاّ بالصبر، نقرأ في سيرة العلماء أموراً تدهش العقل من صبرهم وقوة تحملهم وصلابة إرادتهم بمعنى أنه قد يبقى عشرين سنة يشتغل بتأليف كتاب واحد كي يخرج الكتاب غاية في الاتزان والإفادة، بينما نرى بعض الشباب لا يستطيع أن يدرس لمدة سنتين أو أربع سنوات ليحصل على شهادة.

إنّ النبي ص رغم تأييد الله تعالى له أُمر بالصبر: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾، أي إذا لم تصبر فلن تحصل على نتائج، لأنّ الحصول على النتائج مقرون بالصبر، وتلك سُنة كونية، وما أعظم الصبر إذا كان لله تعالى، لأنه سيختلف عن الصبر من أجل الوصول إلى الهدف لأنّ الصبر كالعمل، قد يكون للحصول على نتيجة، وقد يكون العمل لله تعالى، عندئذٍ سيكون أثره أعظم، وسينعكس على النفس، وعليه فإنّ الأذى والتحمل والصبر لابد أن يكون لله تعالى.

أقسام الصبر في الآية.

قوله تعالى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ يشير إلى أقسام الصبر الثلاثة الواردة في الروايات، قال النبي ص: {الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية}[1]:

الأول: الصبر على الطاعة.

كل طاعة من الطاعات تحتاج إلى صبر، فالصوم يحتاج إلى صبر، وإذا انتفى الصبر فلا قدرة عليه، والصلاة كذلك كصلاة الفجر، بل أنّ كل مفردات الطاعة تحتاج إلى صبر.

الثاني: الصبر عن المعصية.

كثيرٌ من المعاصي التي يجر إليها الشيطان تركها يحتاج إلى صبر وتحمل وضبط للنفس كي لا تقع فيها.

الثالث: الصبر على المصيبة والبلاء.

هذا القسم من الصبر جِدُّ هام، إذِ الإنسان بطبيعته مُعرض لمآسٍ كثيرة، وفي الحياة امتحانات عسيرة تمر على الجميع لا ينجو منها أحد، فهذا يصاب في ماله، وذاك في نفسه أو في ولده أو في صديقه ويتعرض لمحنٍ متعددة، محنة إثر محنة، ومن لا تصيبه مصيبة اليوم ستصيبه غداً، لأنّ الدنيا دار امتحان، قال الإمام علي ع: (دار بالبلاء محفوفة وبالغدر موصوفة)[2]، غير أنّ المؤمن إذا أصابته البلية لن يستطيع أن يقاوم إلا بالصبر حتى يحفظ نفسه وإيمانه.

إنّ الصبر على البلاء من أروع أنواع الصبر، قال أمير المؤمنين (ع): {الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد}[3]، فلا قيمة للجسد من دون رأس، كما أنّ العقل والفكر وغيرهما يرتبطان بالرأس، كذلك جلّ محاسن الإنسان ترتبط بصبره، ولن يتحقق الصبر إلاّ بقوة التحمل عند ذلك يصبر على الطاعة ويصبر عن المعصية ويتحمل البلاء والأذى.

---

[1] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص١٥٦٢.

[2] نهج البلاغة للإمام علي ج٢ خطبة ٢٢٦ ص٢١٩.

[3] قرب الإسناد لأبي العباس عبد الله بن جعفر الحميري ص١٥٦.

طريقة الوصول للصبر.

هناك وسائل وآليات تجعل الإنسان أقدر وأصبر أبانها الله تعالى في القرآن الكريم، منها: التصبر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾[1]، بمعنى أنّ المؤمن إذا لم يمكنه أن يصبر في البداية لابد أن يُعوِّد نفسه على التصبر إلى أن يصبح صبوراً، أي يُمَرّن نفسه إلى أن يجعلها تعتاد على الصبر.

الصبر من صفات الله تعالى فهو الصّبور، سمّي بذلك لأنه لا يؤاخذ الناس بأعمالهم، بل يتيح المجال للعبد الآبق الخارج عن طاعته إلى أن يؤوب إليه ويحصل على رضاه.

معنى النقر والناقور.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾، أي إذا نُفخ في الصور، فالنقر في الناقور تعبير آخر عن النفخ في الصور.

معنى النقر في اللغة: هو القرع على شيء بإحداث صوت، وأصل النقر هو قرع الشيء المفضي إلى النقب والمنقار ما ينقر به[2]، ومن ذلك أُطلق على منقار الطير، لأنّه يُحدث ثقباً في الشيء الذي ينقره، كالأغذية التي يتناولها الطائر، غير أنه لا يراد به هنا هذا المعنى، وإنما يراد به معنىً قريب منه وهو الصّوت الذي يحدث تأثيراً في أُذن السامع لشدته فكأنه يثقب أذن السامع بدخوله إليها، والناقور هو ذلك الشيء الذي يقرع فيحدث صوتاً، من هنا تجدون النقر في الكنائس للتدليل على إعلان وقت الصلوات فيها كالآذان عندنا وإنْ كثر عندهم إطلاق القرع، إذن معنى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴾، أي إذا حدث قَرع الصوت للنفخ في الصور الذي يترتب عليه البعث ليوم القيامة.

---

[1] آل عمران: ٢٠٠.

[2] مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٠٣.

أوصاف يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾، عبَّر الله تعالى عن عالم القيامة بتعبيرات مختلفة، تُدلل على عِظَم الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم، من تلك التعبيرات قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾[1]،

فهناك شدة وأهوال عظيمة تحدث في يوم القيامة، والله تعالى يخبر هنا عن القيامة بوصف ذلك اليوم بأنه يوم عسير، والعسر يقابل اليسر، فالأمر السهل يُعَبر عنه باليسير، والصعب المستصعب يُعبّر عنه بالعسير، ويوم القيامة فيه من العسر والشدة ما لا يطاق ولا يتحمل لبعض الفئات من الناس، لهذا وُصف بـ ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾، إنّ يوم القيامة لا يختص عسره بغير المؤمنين بل يشمل بعض المؤمنين، لأنّ التمحيص يستمر بالمؤمن إلى يوم القيامة، والعسر له مراتب تشكيكية بمعنى أنه يتفاوت في شدته وضعفه، فبعض العسر يُسر بالنسبة لبعضه الآخر، كالألوان تتفاوت في الدرجات فاللون الواحد له مراتب، كذلك العسر له مراتب متفاوتة ومتعددة، أعظم العسر هو ما يحدث للكفار، ويراد بالكافر من يجحد وجود الخالق تعالى أو يتخذ له شريكاً كالصاحبة والولد، وقد عبّر الحق تعالى عن يوم القيامة أنّه يوم شدة وعسر خصوصاً على الكفار، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

قد يتصور الكافر أنّ العسر في يوم القيامة هو من بعض الوجوه دون بعضها الآخر، إذِ الإنسان في العادة إذا أراد أن يتعامل مع غيره تارةً يتعامل بالشدة وتارةً باليسر، أما هنا فالتعبير القرآني يؤكد بأنّ العسر والشدة من كل وجه من الوجوه على هذه الفئة من الناس وهم الكفار الذين ينكرون وجود الحق تعالى.

أسباب الشك في وجود الله.

[1] الحج:٢.

الإيمان بالله تعالى مسألة مهمة في القرآن الكريم يصورها الحق تعالى كبديهة من البديهيات بمعنى أنّ الله تعالى له ظهور وتجلي في الأشياء، قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1]. وشك الإنسان في وجود الله تعالى لسببين:

الأول: انحراف الفطرة.

لأنّ الذنوب والمعاصي تجعل الإنسان يتمادى في غيّه إلى أن يصل إلى مرتبة من اسوداد القلب تؤدي به إلى إنكار وجود الحق تعالى، ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾[2].

الثاني: شدة ظهور الله.

الأمر الثاني الهام هو أنّ بعض الأشياء لا يراها الإنسان لا لكونها غير موجودة، بل لشدة وضوحها لا تُرى، فالإنسان إذا ازداد النور على عينيه لا يمكنه أن يرى الأشياء، بل تنعدم الرؤية تماماً لشدة النور، كذلك الصوت إذا ازدادت ذبذبته على الأذن ينعدم سماعها، وعليه فإنّ هناك أشياء لشدة ظهورها تختفي، والحق تعالى وجوده من هذا القبيل بمعنى أنه باطن في ظهوره، وظاهر في بطونه، فهو مُظهِر للأشياء ومُقوِّم لوجودها.

ومسألة فهم الظهور من البطون تحتاج إلى بصيرة، وإزالة القتامة عن القلب، فطهارة القلب تؤدي بالإنسان إلى معرفة الحق تعالى، كما أنّ اسوداده الذي أشرنا إليه يؤدي به إلى أن يبقى غير عارف لوجود الله تعالى، لكن باعتبار أنّ الله هو الفاطر والمبدع للكائنات فأعظم الذنوب هو الكفر والشرك به تعالى، وأشد الأشياء التي يؤاخذ العبد بها هو الجحود والنكران لوجوده تعالى، وهي المسألة التي توعّد الله عليها بالعذاب العسير من كل وجه من الوجوه.

---

[1] ابراهيم: ١٠.

[2] الروم: ١٠.

سبب تعذيب الجاحد.

يمكننا تقريب السبب في تعذيب الكفار الجاحدين بمثال محسوس، لو كان هناك شخص أحسنت إليه كثيراً بحيث نشأ وجوده من إحسانك إليه ثم أساء إليك غاية الإساءة، كيف ستتعامل معه؟

قد تتعامل معه بأشد ما يكون من القسوة لأنّه رغم ما قدمت له من سبل تؤدي به إلى الخير قابلك بالسوء، والحقّ لكونه المنعم المعطي، وهو الخالق المبدع عندما ينكر المخلوق وجود خالقه رغم ما ينعم به من نعمه يصبح حقيقاً بأن يعامل ذلك المخلوق بأعسر وأشد ما يكون من العقاب أي يعطيه جزاءً يتناسب مع كفره وجحوده وإنكاره لوجود الحق، وقد قرّبنا المسألة بالإحسان مع المقابلة بالإساءة، إحسان متناهي وإساءة متناهية، وكذلك المسألة تشبه الشخص الذي يُسيء ويعفو، ثم يسيء فتعفو عنه ثم يسيء فتعفو عنه، وعند تكرار الإساءة ستضطر إلى أخذه بالشدة والعسر.

الكافر وجحود النعم.

وضعت بعض التشريعات الإسلامية لمن تمَّ العفو عنه ثم تمادى في غيِّه، فيعامل بالشدة، وكذلك حال الكافر، لكون الحق تعالى أحسن إليه، فكفر بالنعم باستخدامه لها في المعاصي، ومضادة الله تعالى وأوليائه، لذلك يعامل بغاية الشدة والسوء في يوم القيامة، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾، بمعنى أنه لا سهولة فيه حتى لبعض المؤمنين، ولهذا ذكر في الروايات أن بعضهم يمر على الصراط كالبرق الخاطف، وبعضهم يمر وهو خائف، وأشد حالات المرور على الصراط للكفار، حيث لا وجه من وجوه اليسر في القيامة لهم، أما في الدنيا فإنّ كل الخلق يعيش في النعيم الذي لا حدود له، بل أنه لايدرك، إذ أنه لا أحد من الخلق خالٍ من نعم الله تعالى، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بنعمه تعالى عليهم ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾[1].

[1] النحل: ١٨

النعم الإلهية يعرفها من يفقدها.

لا يلتفت الإنسان إلى النعمة إلا عند زوالها، حيث يُقدم جميع ما لديه من أموال وجهود في سبيل استردادها، فمن جمع أموالًا وكان له ولد بصحة وعافية يرخص بجميع أمواله لنجاة ولده عندما يصاب بمرض، أي أن المال لا قيمة له عنده بالنسبة لنجاة ولده، وهو على استعداد أن يعيش حياة عادية بل صعبة في سبيل نعمة إعادة الصحة لولده، وهكذا من يصاب في نظره، سيتخلى عن أمواله لاسترداد نعمة البصر، إذن الإنسان يرفل في نعم لاحدود لها، لكنه يدركها عند فقدها، وقد لا يدرك أكثرها.

إن الله تعالى ينبه الناس جميعًا كي يلتفتوا إلى نعمه وآلائه قبل فوات الأوان، وأن عليهم أن يشكروه لتستمر نعمه بل لتزداد، قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان:١٤) ، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم:٧)، غير أنّ دوام النعم وبقاءها مشروط بأن لا يقابلها الإنسان بالجحود والكفران، بعض النعم تُدرك عندما يتقدم بالإنسان السن، فيُدرك نعمة الشباب ونعمة الصحة، أي أنه لا يلتفت إلى هذه النعم إلاّ بعد فوات الأوان، أكثر الناس على هذه الشاكلة، ينسى نعم الله عليه، والنسيان جحود وكفران بمرتبة من المراتب، لذا ينبغي للعاقل أن لا يكفُر بأنعمه تعالى، وكلما تذكر نعمة أحدث لله شكرًا، إما بسجود أو بقول: الحمد لله رب العالمين.

علاقة الكافر بالنعم الإلهية.

في قبال من يداوم على ذكر النعم وشكرها الكافر، الذي لا يرى لله تعالى نعمة، بل يرى أن ما به من نِعَمٍ هو من عنده، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1]، لا يرى دخلاً للقدرة الإلهية في النعم التي لديه، وذلك هو الفارق الأساس بين الكافر والمؤمن، المؤمن كلما ازداد إيماناً أدرك نِعَم الحق تعالى عليه، والكافر كلما ازداد طغياناً وكفراً أنكر نِعَمه تعالى عليه، وهو ما يؤدي به إلى سوء العذاب، إذن إيمان المؤمن يؤدي به إلى الشكر، وكفر الكافر يؤدي به إلى الجحود والطغيان والبعد عن الحق تعالى، ويترتب عليه العذاب الشديد في الآخرة ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

شخصية الوليد بن المغيرة.

قوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾

قال المفسرون[2]: إنّ هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة –والد خالد بن الوليد– كان شخصية كبيرة من شخصيات قريش، منحه الله تعالى سعة في المال وكثرة في الولد، وأعطاه مواهب متعددة، من جملتها فهم أسرار العربية حيث كان الشعراء والأدباء يحتكمون لديه عند اختلافهم في فهم أسرارها، وكان رجلاً عملاقاً من حيثيات متعددة وجهات كثيرة، فهو يملك أموالاً طائلة، وهبه الله تعالى إياها، ولديه كثير من الخيول والإبل وغير ذلك، وأولاده لكونه توافرت الثروة لديه لم يكونوا كسائر الناس يذهبون عنه بعيداً في طلب الرزق، بل هم بين يديه دائماً يستأنس بهم ويدخلون عليه السرور، ومن كان مثله في الثروة والمال والجاه ولديه قدرات ذكائية من الطبيعي أن يعلم أولاده الفنون والمهارات المختلفة، لذا، كان

---

[1] القصص: ٧٨

[2] تفسير مجمع البيان للطبرسي ج١٠ ص١٧٨

ابنه خالد من الشجعان، وبقية أولاده عندهم قدرات كبيرة لتوافر الثروة والجاه بالإضافة إلى قدرات في الشعر والأدب ومهارات أخرى.

أبّان نزول الرسالة كان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً تجاوز السبعين من عمره وما زال محتفظاً بقوته وقدراته الذهنية والعقلية والفكرية والأدبية، شخص بهذه المثابة لابد أن يطغيه المال في العادة، المال وحده يُطغي فكيف إذا توافر معه الجاه والبنين وما إلى ذلك من الأمور الأخرى التي يسند بعضها بعضاً، هذه أشياء تدعوه إلى طغيان أكثر، لذا لما اصطفت قريش في محاربة النبي ص، كانت تخاف من الوليد أن يميل إلى الإسلام لاحترافه في الأدب، فقد تصدر منه كلمة في شأن القرآن أو في شأن النبي ص تُرجح الكفة لصالحه ص، وبالفعل هذا ما حصل، فقد حاولوا منع الوليد من الاستماع إلى القرآن الكريم خوفاً من تأثره، وفي يومٍ أراد الوليد أن يستمع إلى النبي ص وهو يتلو القرآن في المسجد الحرام حيث نزل عليه، ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾[1]، وعلم النبي ص أنّ الوليد يستمع فأعاد تلاوة آيات القرآن، ومن المعلوم أنّ آيات القرآن تؤثر في الشخص العادي فكيف بمن لديه فهم عميق لأسرار العربية.

موقف الوليد من دعوة النبي.

فلما استمع الوليد للقرآن الكريم قال: (والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى)، فقالت قريش: صبأ الوليد، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعد إليه حزيناً، وكلَّمه بما أحماه، فقام فناداهم فقال: تزعمون أنّ محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل

[1] غافر: ١، ٣.

رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا: لا، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه؟ ففرحوا به وتفرقوا مستعجبين منه[١].

وما ذكره هو وصف القرآن، وإن كان لا يصل كلامه إلى الوصف الكامل الشامل للقرآن، لأنّ القرآن أعظم من ذلك بكثير، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٢]، أي أنّ الجبال تتصدع من تلاوة القرآن، فما بالك بشخص عنده قدرات كبيرة في فهم أسرار الأدب العربي، وكان كلام الوليد في حق القرآن جعل الناس تتأرجح، ثم تراجع عن وصفه للقرآن وطعن النبي ص بأنه ساحر، وأخذ الإعلام المضلل للحقائق يتناقل كلمته، ويشيعها بين الناس، وللإعلاميين قوانين من جملتها تكرار الكذب كي يصدقه الناس، لأنّ أكثر الناس لا يراجع ولا يقارن حتى يتعرف على الحق والصواب ويفرق بينه وبين الباطل.

نعم؛ قليل من الناس يمكنهم الوصول إلى الحقائق، غير أنّ الأغلب إمّعة يسمع ويصدق، وإذا لم يكن إمّعة فهو لا يمتلك قدرة فكرية تدعوه للتمييز بين الحق والباطل، لأنّ القليل من الناس لديه العلم والفهم والارتباط بالله تعالى، أمّا أكثر الناس فهم يتأثرون بالإعلام، ولننظر إلى الإعلام في عصرنا الحديث كيف يَقلِب الحقائق ويُحوِّل الحق إلى باطل، ويجعل الناس لا يقدرون على التمييز بينه وبين الباطل، والأمر كذلك في عصر النبي ص حيث اتّهم بالسحر، فاغتم ص لذلك، وتأثَّر كثيراً.

الوليد يمنع الناس من قبول الدعوة.

كان بإمكان كثير من الناس أن يهتدوا إلا أنّ الوليد شكَّل حاجزاً سميكاً ومانعاً كبيراً، بل إعلاماً مضاداً، فأنزل الله تعالى الآيات تسلية لرسوله ص وتخفيفاً لألمه، والآيات ﴿ ذَرْنِي

---

[١] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج٩ ص ١٦٧.

[٢] الحشر ٢١.

﴿وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ تخاطب النبي ص أن يترك هذا الشخص لله، لأنه تعالى قد خلقه وحيداً، وهو المتكفل به لكونه الخالق المبدع وبيده ملكوت الأشياء، وإذا كان هذا الرجل قد قام بعمل سيء للغاية، فلن يضر ذلك دعوة النبي (ص)، هذا الأسلوب القرآني له فوائد متعددة منها: نفي الغم عن النبي صلى الله عليه واله وسلم .

معنى الوحيد في الآية.

قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إمّا بيان ووصف لله تعالى بمعنى أنه الخالق وحده لا شريك له وهو الكافي للنبي ص، وإمّا وصف للوليد حيث إنه أصبح وحيداً فيما أُعطي، وقد كان يعبر عن نفسه أنه الوحيد ابن الوحيد[1]، وكان أبوه أيضاً وحيداً في قدراته وأمواله وفي ثرائه وأولاده، جعله الله تعالى وحيداً فيما أعطاه من أموال لكنّه رغم ذلك آذى النّبي ص فأمره الله تعالى بتركه.

ويمكن أن يكون المراد كلا المعنيين، إذْ لا مانع أن يستخدم القرآن الكريم وصفاً واحداً ويشير به إلى معنيين، ولعله من الاستخدام في البلاغة، وإنْ كان بعض الأصوليين لا يقبل ذلك، ويرى أنّ اللفظ الواحد لا يستخدم في أكثر من معنى واحد في وقت واحد.

حقيقة معنى الوحيد.

والصحيح أنه يمكن أن يكون اللفظ الواحد يشير إلى معنيين فتصبح لفظة {وَحِيدًا} إبانة لأنّ الله تعالى خلقه وحده لم يشاركه أحد في خلقه، وأعطاه وحده أيضاً لا شريك له في ذلك، ويمكن أن تكون لفظة {وَحِيدًا} وصفاً للوليد لكونه أوتي ما لم يُؤتَهُ غيره ثم إنّ سلسلة نسب الوليد هي الوليد بن المغيرة بن أبي مخزوم، ولا يتكلم المفسرون في سلسلة آبائه، فهو وحيد في قدراته وفي ثروته وجاهه ليس له نظير، وليس المراد من كونه وحيداً من

[1] تفسير القرطبي ج١٩ ص٧١.

ناحية تولده من الحرام كما في بعض المعاني المروية التي ذُكرت لهذه الآية، لذا لم يُشر المفسرون إلى هذا المعنى ولعل البعض يحتمل هذا المعنى، لكن هو من المعاني البعيدة جداً، إلا أن يكون واقعاً مخفياً عن الناس فكشفه الوحي.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴾، اتضح أن معنى المال الممدود هو السعة في المال، أي له ثروات متعددة.

ماهية البنين الشهود.

قوله تعالى: ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾، أي أنّ أبناءه في محضره، كبعض الملوك وبعض الوجهاء لديهم أحباء وأصدقاء بجانبهم دائماً، يخدمونهم ويقومون بشؤونهم، ويختلف شعور المخدوم، حيث إنّ خدمة الغير حتى وإن كان من المحبين تختلف عن خدمة الابن، إذ لها رونق وطعم خاص، وقد عبّر الإمام أمير المؤمنين ع في خطابه لابنه الحسن ع بقوله: {وجدتك بعضي، بل وجدتك كلّي}[1]، فهناك ارتباط وأنس وعاطفة جياشة تربط بين الأب وابنه، وعندما يحيط الأبناء بأبيهم ويلبون له ما يدور في خلده، خصوصًا إذا كان بعضهم له ذكاء وفطنة يعلم ما يحتاجه الأب دون أن يتفوه بشيء، أي يقرأ أفكار والده، ويُلبي له ما يريد، عندئذٍ تكون سعادة الأب في أتمها، وقد كان الوليد لديه عشرة أبناء، وكانوا بمحضره دائمًا، يلبون ما يريده، فعاش بحالة من الشعور بالراحة والسعادة.

قصة مؤثرة في بر الوالدين.

زرت إحدى الشخصيات الثرية في إحدى الدول، وكان كبيراً في السن، وعنده أبناء بارين له، فتعجبت من بر أبنائه به، حيث كان براً غير طبيعي، وأول مرة أشاهد في حياتي هذا البر، فكان الأب إذا أراد القيام يقوم بعض أبنائه بخدمته ويقف إلى جنبه، وكان أبناؤه أيضاً أثرياء ومؤدبين، وعندهم قدرات كبيرة، وكانوا يتسابقون في خدمته، وبالرغم من أنه كبير

[1] بحار الانوار ٧٤ ص١٩٩

في السن قد تجاوز عمره التسعين سنة، وكان يصعب عليه القيام والقعود، إلا أن المستوى الرفيع من العناية الفائقة به جعلته يعيش حالة من الأنس والراحة والاطمئنان، لإحاطة أبنائه به إحاطة السوار بالمعصم، وتلبية ما يتوق إليه.

والتعبير القرآني ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ يُصور هذه الحالة من الأنس التي تدخل السرور على الأب.

تيسير الأمور لطف إلهي.

قوله تعالى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴾، أي يسرت الأمور له وعبدت الطرق كالمهد للطفل، وهو مكان راحته وأنسه، أبان الله تعالى أنه جعل الأمور ميسرة ومعبدة وسائغة وهنيئة للوليد، كما نرى ذلك لبعض الناس إذ يرافقه التوفيق، حيث إن خطأه يتحول إلى صواب نتيجة التوفيقات التي تحيط به من كل مكان، نعم ذلك يرجع لحكمة إلهية ومصالح ربانية، والله تعالى يعطي من يعطي لحكمة ويمنع من يمنع لحكمة، ورغم هذه النعم التي أغدقها الله تعالى على الوليد، لكنه لم يستفد منها، بل على العكس أوجبت له البعد بدلاً من القرب والحظوة من الله تعالى، حتى أصبح أبعد ما يكون عنه تعالى.

إن المال والجاه والنعم الإلهية تحتاج إلى ميزان دقيق كي يستفيد منها الإنسان، لأنها إما أن تورث القرب أو توجب المقت والسخط.

الطمع في ذات الإنسان.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ ﴾، أي يطمع أن يزيده الله تعالى أكثر مما أتاه من المال والولد والقدرات الأخرى، قال أمير المؤمنين ع: {منهومان لا يشبعان طالب دنيا وطالب علم }[1]، إذا تعلق الإنسان بالأموال في الحياة الدنيا فسيبحث عن الزيادة، ولابد من

[1] الكافي للشيخ الكليني ج١ ص٤٦.

الانتباه من مغبة ذلك، إذ أنّ الزيادة في الأعم الأغلب تؤدي بالإنسان إلى الهلاك، لكونه يتحول إلى عبدٍ للمال، لأن المال إما أن تستفيد منه فيتحول إلى وسيلة وخادم لصاحبه، وإما أن تخدمه أنت، فيزداد ويكثر ويتحول صاحبه إلى عبد له يداريه، قال أمير المؤمنين ع:{العلم يحرسك وأنت تحرس المال}[1]، كلما ازداد العلم شكّل حصانة عن الوقوع في المتاهات، فهو حارس، أما المال فكلما ازداد احتاج للحفاظ عليه والتفكير الدقيق لئلا ينقص، والسعي نحو استثماره بطرق متعددة، فيحول المالُ صاحبَه إلى عبدٍ له، وكلما زاد المال زاد الطمع، الذي يجر صاحبه إلى عواقب غير حميدة، من جملتها زوال نفس المال وفناؤه، ولعل طمع الوليد من هذا القبيل، فكان يطمع أن تزداد أمواله ويكبر جاهه وتعلو منزلته، ولكنه سلك طريقاً سيئاً، أدى به إلى الهلاك.

إن خوف الوليد من النبي ص يرجع إلى خوفه على المركزية التي لديه، إذ هو من الشخصيات الكبيرة كما أسلفنا، بل كان الشخصية الأولى في قريش، لأنّ قبيلة بني مخزوم التي ينتمي إليها الوليد تعتبر من الطبقة العليا، والمجتمع القرشي معروف بكونه يتشكل من طبقات، هناك الهاشميون وهم الطبقة الأولى، وبنو مخزوم بعدهم في الفضل، لتمكنهم اقتصاديًا وفصاحتهم وشجاعتهم، ثم تأتي الطبقات الأخرى بعدهما كبني زهرة وبقية القبائل كالأمويين.

الوليد من بني مخزوم، ممن لهم وجاهة ومقام، ولعله لذلك لم يقبل بما جاء به القرآن في دعوته إلى العدل وإنفاق المال في سبيل الله تعالى والدعوة إلى العدالة الاجتماعية والمساواة، لخشيته على مركزه، أصحاب النفوذ والمراكز يخشون كثيراً على مراكزهم ونفوذهم، وهذا ما حدث للوليد، فاندفع نحو مضادة القرآن ومحاربة الرسول ص، حفاظاً على نفوذه وخوفاً من تغير الموازين في المجتمع إذا أسلم، إذ قد يتحول إلى شخصية عادية، بينما كان يطمع أن يزداد نفوذه أو على الأقل أن يحافظ على مركزيته، ليس لديه استعداد للتضحية بالمنصب

[1] تحف العقول لابن شعبة ص١٧٠.

والجاه العريض والأموال التي لديه، فجره الطمع إلى محاربة النبي ص ومضادة القرآن ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾.

سبب صدور الطمع.

الطمع هو نتيجة للجهل وعدم العلم بالعواقب وعدم تقدير الأشياء وفق الحكمة، فمن يطمع في زيادة رصيده وجاهه قد يتحول طمعه إلى وبال عليه، وكان الوليد كذلك.

مزالق العناد واللجاج.

قوله تعالى:﴿ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾، اتخذ الوليد اللجاج والمعاندة في رفض رسالة المصطفى ص، هناك مشكلة هي أنّ بعض الناس ليس لديه سهولة ومرونة لسماع الطرف المقابل، لأنه يتمسك برأيه وإنْ عرف خطئه وصحة الرأي المضاد له، بل أنّ لديه استعداد أن يدخل جهنم في سبيل الحفاظ على رأيه، ذلك العناد هو أعظم داء يصاب به الإنسان، فيجعله يجانب الصواب ويبتعد عن الحق ولا يقبله، من هنا حضت الروايات الإنسان على المرونة والتواضع، قال الإمام الصادق ع: {إنّ من التواضع...أن يترك المراء وإن كان محقاً}[1]، وهناك روايات أكدت على أهمية الأخذ باليسر والسهولة، قال الإمام الباقر ع: {إنّ الله عزّ وجل يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف}[2]، ذلك أنّ الملاججة والمعاندة قد تؤدي بالإنسان إلى السوء، قال النبي ص: {إياك واللجاجة فإنّ أولها جهل وآخرها ندامة}[3]، هذا واقع اللجاج جهل أو ندامة، والعاقل يدع ذلك لله حتى وإن كان الحق معه، لأنّ ذلك سيمنحه الكثير من الميزات والعطايا والهبات.

---

[1] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٤ ص٢٨٩٣.

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص١١٠٣.

[3] المصدر السابق ج٤ ص٢٧٧٣.

النبي تجسيد للرفق.

يحوي اللجاج الغلظة والصلافة وعدم الاستعداد لاستماع غيره، أو جعل النفس في رتبة من يغايره، وهنا تكمن فداحة خطر اللجاج، لذا أبان القرآن الكريم تميز شخصية النبي ص وخلوها من ما يستبطنه اللجاج من الغلظة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]، هو ص أكمل الخلق، ولديه مبدأ تربوي هو المرونة والسهولة مع أعدائه، فضلًا عن المحبين له، وكان ص يتميز بالسهولة والموضوعية، وقد خاطب الكفار بقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(سبأ:٢٤)، فلم يقل لهم: نحن على الحق وأنتم على باطل، بل احترم الطرف المقابل، لذا أمره الله تعالى بالحوار على أسس رصينة وقواعد متينة، أهمها البراهين والأدلة، كي يتبعها المنصف حيث تأخذه إلى الحق، وذلك جد هام للإنسان الذي يتعامل على وفق ضوابط وأسس تجعل غيره يرعوي إلى الصواب ولو بعد حين ويترك الباطل، إذن من أراد إيضاح الحقيقة لأحد فإن عليه أن يتخذ المرونة أسلوباً، وأن لا يدخل في صراع ولجاج معه، بل عليه أن يحترمه انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(سبأ:٢٤).

المراء يحجب عن الحق.

من أسوء الصفات التي تحجب الإنسان عن الحق المراء والمجادلة، قال الإمام الكاظم ع: {إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار، لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل}[2]، أي أن

---

[1] آل عمران: ١٥٩.

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج١ص٦٧٤.

الحكمة لا تنبت في الصلد والصلف، وإنما تنبت في السهل، وهو مكان المرونة وقبول الحق، أي أن من ليس له استعداد لسماع رأي غيره فلن يصل إلى الصواب.

النبي مصداق التواضع.

خاطب القرآن الكريم النبي ص ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1] وهو طلب من الرسول ص أن يتعامل مع المؤمنين بالرفق والمرونة، وأن لا يجبرهم على شيء، ومن ذلك نفهم أهمية أن يُربّى الغير على الاحترام، كي يسير على الصراط المستقيم، لأن احترام رأي الغير وجعله في نفس الرتبة عند الحوار يؤثر إيجاباً على قبوله للحق، غير أنّ هناك بعضًا من الناس إذا وصل إلى مناصب أو مقامات يرى من خلالها أنه على الحق وأنّ غيره على الباطل.

إن علينا أن نلتفت أنه مهما كان الآخر لن يكون لديه استعداد لسماع الحق أو التحاور إذا ازدري أو قُلل من قيمته.

التعامل قائم على القيم والأخلاق.

قد ينظر بعض الناس أنه ليس بحاجة للطرف الآخر وأنّ الآخر هو المحتاج، وذلك منطق يجانب الصواب، لأنّ التعامل في الجانب الإنساني لا يقوم على الاحتياج والمنفعة، بل يقوم على القيم والأخلاق واحترام شخصية الآخر، مما يتطلب التواضع والمرونة في التعامل، هذه مبادئ جدُّ هامة في الوصول إلى الحق، قال الإمام علي ع: {من كثُر مراؤه بالباطل دام عماؤه عن الحق}[2]، أي أن هناك حجابًا سميكًا بين الباطل والحقّ، لا يستطيع أحد أن يأخذ بالحق إذا كثُر عناده ولجاجه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾، بل أنّ الله تعالى سيبعده عن الحقّ، قال تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾، إنّ جزاءه لعناده أن يبتعد

---

[1] الحجر: ٨٨.

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٤ص٢٨٩٤.

عن الحق ويتمسك بآرائه البالية، والوليد أصبح ضعيفاً لأنه دخل في عملية تحدٍّ صارخ للحق تعالى، فجعل الله تعالى القدرات والمنح التي امتن بها عليه لا تصب في صالحه، بل تضاده ويرهق بها، ﴿صَعُودًا﴾، الإرهاق هو الإعياء والتعب، لكن الإعياء والتعب على درجات، منها: أن يكون الإعياء كالصعود لمرتفع شاهق، بمعنى أنّ التعب سيتصاعد درجة درجة تجاه الوليد، ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، من يصعد جبلاً يتعب شيئاً فشيئاً، كذلك عذاب الوليد سيكون بشكل تدريجي، يزداد به إرهاقاً وتعباً بعقبات لاحدود لها، لأنّ الله تعالى إذا حارب شخصاً فلن يستطيع أحد أن يقف أمامه، وإذا أراد الخير لأحد سهّل أمره، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

إذن توضح الآية أنّ الوليد يزداد بعداً عن الحق وفهم الواقع، لمروره بإرهاق تصاعدي، وبإعياء بعد إعياء، قال المؤرخون: إنّ حاله بعد نزول الآية كان من ضعف إلى ضعف آخر إلى أن تلاشى كلياً، ذلك أنّ من يضاد الحق يواجه الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء.

التفكير السلبي.

عناد الوليد يقوم على أسس أوضحها القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، فقد دخل في عملية تفكير وتأمل دقيقة من خلال ما لديه من معلومات ومقارنة للتوصل إلى مطلب يرتّب عليه أثره، ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾، قدّر: بمعنى وضع تقديراً وتخطيطاً للتوصل إلى نتيجة، وعملية التفكير كالعلم سلاح له حدّان، العلم والمال والسيف وغيرها أمور

[1] الأنعام: ١٢٥.

يستفيد منها الإنسان في الخير والسوء، فقد يفكر المرء بما يعود عليه بالوبال على نفسه أو على الآخرين، وعملية التفكير التي توصّل إليها أوضحت أنّه كان يقارن بين القرآن وغيره من أساليب الكلام، فتوصل إلى إعجازه، غير أنّه لم يذعن لمنطق عقله واتّبع هواه، محاولاً أن يخرج من مأزقه باتّهام النبي ص أنه ساحر، فهو ص ليس بشاعر لأنّ الوليد يعرف الشعر، بل هو حجة في التحكيم بين الأدباء والشعراء، فقد كانوا يحتكمون لديه، والنبي (ص) ليس بكاهن، لأنّ أقوال الكهنة لا تتفق مع ما يفصح عنه القرآن الكريم، فما بقي إلاّ أن يتّهم النبي (ص) بالسحر، لأنّه يفرق بين الأب وابنه وبين الصديق وصديقه وبين المرء وزوجه، فقد يُسلِم الزوج ولا تُسلِم الزوجة، والعكس صحيح أيضاً، إذن هناك تفريق بين الاثنين وهو عمل السّحرة الذين يُفرقون بين المرء وزوجه والصديق وصديقه، إذن فمحمد ساحر.

والتفكير الذي أوصله إلى هذه النتيجة جعل المجتمع القرشي بأكمله من المعارضين للنّبي ص يتبنّون كلام الوليد في كون النبي ص ساحراً، فشكّل عقلاً جماعياً في إطلاق هذا الوصف على النّبي (صلى الله عليه واله وسلم).

التفكير الإيجابي.

دعا القرآن الكريم إلى التفكير الذي يبتني على أسس وقواعد تقود المتأمل والمفكر إلى طريق الخير والابتعاد عن السوء، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]، فلا يضع العاقل خططاً تؤدي به إلى الهاوية أو بمجتمعه الذي يعيش في كنفه إلى ذلك، بل يضع ما يؤدي إلى الرقي والرفعة.

الخطر الفكري للوليد.

أما الوليد فقد كان تفكيره عكسياً، ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ ﴾، أي أمعن النظر ووضع خطة مُقدرة، خلاصتها: أن يتحدى العرب إذا سألوه فيجيبهم بقوله: نحن نمثل الذين لهم قيمة، لأنّ قريش تمثل المجتمع الراقي والطبقة العالية، والعرب تأتي لتسألهم عن رأيهم في الرسول ص فوضع لهم خطة يتم الاتفاق عليها حيث لا يقال عن النبي ص إنّه شاعر، ولا كاهن، ولا مجنون ولا كاذب بل يقال إنّه ساحر، إذْ لو قيل إنّه مجنون فلن يصدق الناس بذلك، لكون المجنون لا يمتلك القدرات الكبيرة التي لدى الرسول ص، وليس بكاذب، لأنه الصادق الأمين، وليس بشاعر لاختلاف الشعر عن القرآن، ولم يتخذ الكهانة فيخبر عن المغيبات من خلال اتصاله بالجن، وإذا بطلت تلكم الأوصاف فليس هناك وصفٌ للنبي (ص) تجتمع عليه كلمة قريش بل العرب إلاّ أنّه ساحر، وهذه طريقة إعلامية لحرف الرأي العام باتجاه معين، وهو ما يقوم به الإعلام الحديث، فإنهم إذا أرادوا أن يُدّمروا شخصية مؤثرة علمائية أو إصلاحية اجتماعية يقومون بإثارة دعاية على ذلك الشخص إلى أن يشكلوا عقلاً جمعياً ضده، حيث لا يستطيع أحد أن يأخذ شيئًا منه، وهذا الأسلوب المدروس ناتج عن عملية تفكير وإمعان نظر، لكن الله تعالى يرتّب عكس ما يفعله المبطلون،

[1] الأنعام: ٥٠.

قال تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾[2]، والأمر هنا كذلك فإنّ الوليد فكّر وقدَّر غير أنّ تفكيره لم يؤدِّ إلى إبعاد الناس عن الرسول ص، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[3] والنبي ص منصور مؤيد ورسول مسدد.

نهاية تخطيط الوليد.

قوله تعالى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي أنّ عملية تدبيره وتخطيطه أودت به إلى الهلاك، وعلو وارتفاع شأن النبي ص والرسالة، فكان تدميره في تدبيره، ولم يعد عليه تدبيره إلا بالضرر.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

توكيد قرآني شبيه بقولنا: فلان مات وقُتِل، فيكون القتل من جهة أخرى مثل ذهاب أمواله أو أولاده أو ذهاب نفسه وبقاء دعوته، كذلك الأمر هنا في الآية، فالمطالب التي كان يقولها الوليد وطريقة تفكيره وتقديره، والمنهج الذي سار عليه كان في كلّ ذلك تدمير شخصيته، ومعنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾، أي لم يبقَ وجه من وجوه النجاة إلاّ وقد كُسر وتحطم، فسارت الأمور بنحو عاد على الوليد بالوباء والوبال، ولم يبقَ له نافذة أمل يستطيع من خلالها أن يرى خيرًا، وكلما أراد أن يخرج من ظلمة وقع فيما هو أشد منها، وذلك حال من يفكر في محاربة الحق تعالى، فإنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

---

[1] آل عمران: ٥٤.

[2] الحج: ٣٨.

[3] الإسراء: ٨١.

الوليد وآلية التفكير.

كان الوليد يضع خططاً استراتيجية للوصول إلى أهدافه، ولديه فهم للأساليب والوسائل التي تحول ما يفكر به إلى برامج عمل، وعنده مهارة في فهم الوسائل والآليات التي تؤدي به إلى الوصول إلى نتائج تفكيره، لذا، أشار القرآن إلى هذه الحقيقة ﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾.

النظر يستخدم على قسمين: تارةً بمعنى الفكر وأخرى بمعنى البصر، والتعبير هنا ناظر إلى الآليات، قال بعض المفسرين: إنّه فكّر وأمعن في فكره وقدّر الأمور ووضع الخطط ثم سعى جاهداً للبحث عن أنجح الوسائل للوصول إلى مآربه، فتوصل أن يجمع العرب والمناهضين للنبي ص على كلمة واحدة، حيث جعلهم يتفقون على رأي واحد في وصفهم للنبي ص بأنه ساحر.

وصول الوليد إلى هذا الاتفاق دلل على قدرة كبيرة من التفكير والتخطيط، وذلك من أعظم الأمور التي تؤدي إلى النجاح، إذ أنّ العرب إذا لم تتفق ضد النبي ص سيضعفون في العادة، فجمع الوليد شتات المتفرقات تحت إطار واحد، بحيث إذا سُئل أي شخص عن القرآن فسيكون الجواب بأنّ محمدًا ساحرًا، لأنه يفرق بين الحبيب وحبيبه، وبين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه، وذلك نتيجة لنظرة الوليد الدقيقة وإلى الأساليب والوسائل التي استخدمها كي تؤدي به إلى الوصول إلى ما يبتغيه في تنفيذ الخطة والتغلب على القرآن الكريم.

معنى العبوس.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾.

عبس من العبوس وهو التقطيب بالوجه، يقال: عبس يعبس عبساً، أي قطب ما بين عينيه[١]، والعباس صيغة مبالغة لمن يقطب وجهه، ويظهر أنّ ذلك شيئًا جميلًا في الحرب وفي أوقات الشدائد، فكأنّ الإنسان يُظهر حزماً وبأساً في أوقات الشدة، ولا يظهر متراخياً، بل يظهر بشدة وبأس كي يصل إلى ما يريد، وحال الوليد كذلك، فبعد أن فكر وقدّر ثم نظر، عبس، أي، أظهر أمام الجميع أنه في موقع تنفيذ ما خططه وأقدم عليه بشدة وبأس وقوة وشكيمة.

معاني البسر.

أمّا "بسر" فله معنيان:

الأول: تغير لون الوجه[٢].

أي أنّ لون الوجه يصبح باسراً، ويعبر عنه لدى الأحسائيين: باحتقان الوجه، وهو أن يصبح الوجه مكفهراً.

الثاني: العجلة[٣].

بمعنى أنّ الوليد بعد أن فكر وقدر ثم نظر ثم عبس استعجل في تنفيذ خطته يريد التغلب على القرآن، فلم يتوانى ولم يتريث، بل بمجرد أن وصل إلى نتيجة تفكيره سارع في وضع الخطة كي ينفذها من دون تأخير، وكلا المعنيين له مدلول خاص، فإذا كان بسر بمعنى اكفهر في وجهه فذلك يعني أنه أظهر للآخرين حزمه وجده في الوصول إلى محاربة القرآن، لذا تأثرت قريش برأيه وأخذت به، رغم أنها اتخذت رأياً آخر قبل ذلك، فقد انقسمت إلى

---

[١] لسان العرب لابن منظور ج٦ ص١٢٨.

[٢] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج١٩ ص١٦٩.

[٣] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج١٩ ص١٦٩.

قسمين: الأول: يرى أن القرآن شعر والثاني: يعتبره سحرًا، لكنّ الوليد غيّر قناعاتهم بحزمه وعدم تردده في رأيه، بالإضافة إلى كونه حجة في فهم كلام العرب والشعراء، فعندما قال إنّ القرآن سِحر، قبل قوله لدى أتباعه لكونه حجة.

معنى الإدبار والاستكبار.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

معنى أدبر: رجع إلى الوراء، فالإدبار خلاف الاستقبال يقال أدبر عن الشيء بمعنى أعرض عنه، وأدبر عن الشيء بمعنى أعرض عنه واتجه في الطريق المقابل له، أي اتخذ الطريق المضاد له، ولعل المعنى الثاني أقرب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

الاستكبار له معنيان:

الأول: الاستعلاء على شيء.

الثاني: الاستعلاء والجحود.

فقد يجحد المستكبر الحق رغم علمه بصحته، لكنه يحاول أن يجحده، ونلاحظ هنا أنّ الطريق للمعاداة والمضادة مع شيء له أساليب مختلفة، فمن لا يريد شيئاً تارةً يستكبر عليه فلا يأبه به ولا ينظر إليه، وأخرى يتخذ أسلوباً مضاداً له ويعرض عنه، وهذا آكد في الإعراض، وهنا إذا اتخذ المرء كلا الأمرين، أي أدبر بمعنى أعرض واتخذ المسار المضاد ومع ذلك كان مستكبراً فحينئذ يصبح في قمة المعاداة لما يضادّه، ولن يهتدي إلى الصواب ولن يصل إلى الحق بأي وجه من الوجوه.

توجيه أخلاقي في الآية.

في تعبير الآية بلاغة متناهية، تُعطي درساً أخلاقياً نستفيد منه، من جهتين:

الأولى: أنّ الإنسان يستطيع أن يهتدي إلى الصواب ويعرف الحق إذا لم يدبر عنه معرضًا، بل لديه نظر إلى الحق، أما إذا أدبر فلا يمكن للمدبر عن الشيء أن يرى حقانيته.

الثانية: أنّه لا يمكن أن يهتدي الإنسان إلى الصواب إذا استكبر، فالاستكبار يمنع من الوصول إلى أي هدىً، وتنسد جميع منافذ الخير على المستكبر، والعكس صحيح كلما تواضع الإنسان فتحت له الآفاق الرحبة والواسعة وحينئذ يستطيع أن يهتدي إلى الصواب، ويتضح هذا عندما ينظر الإنسان إلى عواقب الأمور ويمعن النظر في أمر ما أكان اجتماعياً أم ثقافياً أم غير ذلك، أمّا من يُعرض عن ذلك الأمر الاجتماعي أو الثقافي فلا يمكنه أن يتلمس إيجابياته، كما أنّ من اتخذ طريقاً مضادًّا فسوف ينظر إلى الأمور من الجانب السلبي، ولهذا نجد بعض الناس إذا كان عدوًّا لشخص يرى محاسنه مساوئًا، وكل إيجابية تصدر منه سلبية، هكذا حال الوليد لأنه أدبر واتخذ سلوكاً مضادًّا فلم يرَ محاسن الدعوة.

الطريق المضاد والتواضع.

أنّ من يعرض ويتخذ طريقًا مضادًّا لكنّه لم يستكبر فهناك بصيص أمل في رجوعه عن إعراضه، أمّا إذا كان مستكبرًا فمن المستحيل أن يصل إلى الصواب، بل سيزداد في بعده عن الحق، وهذه معادلة، كلما ازداد الإنسان تواضعاً كلما رأى الأشياء بشيء من الوضوح، وكلما استكبر أصبح يراها غائمة قاتمة، وهي من أعظم المعادلات التي تفيد الإنسان في الناحية الأخلاقية والعباديّة، أي في تكامله العبادي، فإنه يحتاج إلى التواضع في علمه وفي عمله الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وغير ذلك.

استعلاء الوليد.

من استكبر ابتعد عن الحق وعن الآخرين، وسوف يبتعد الآخرون عنه، فلا يمكنه أن يصل إلى الصواب، والوليد هنا اتّخذ طريقًا مضادًّا واستكبر فكان يرى أنّ القرآن الكريم والرسول ص أقل رتبةً وشأنًا منه، فكيف يمكنه أن يهتدي بهدي النبي صلى الله عليه واله وسلم ؟! وكيف يمكنه الأخذ منه؟! بل كيف يمكنه أن يكون متبعاً له؟!

الاختلاف في القضايا الاجتماعية.

قد تجد بعض الناس يخالفك ويضادك في القضايا الاجتماعية، ويُدبر عنك كلما اقتربت إليه، بل يبتعد عنك أشواطاً، وقد يستكبر عليك، ولا يراك من أقرانه ومماثليه، بل لا يراك شيئاً، وحينئذٍ فلن يمكنه أن يستفيد منك، لأن الاستفادة من الأشياء تتوقف على عدم الاستكبار وتتأتى بالتواضع.

التكبر صفة مختصة بالله تعالى، ليس لغيره أن يتقمصها، ورد في الحديث القدسي المروي عن النبي ص:{الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في شيء منهما قصمته ولا أبالي}[1]، إن المتكبر ينحدر ويرتكس في جهله وظلامه، لهذا صدر عن الوليد قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾، أوضحنا سابقاً المراد من السِّحر عند الحديث عن نتيجته بأنها التفريق بين الصديق وصديقه والمرء وزوجه والولد ووالده، وأن كل من آمن بالقرآن سيفترق عن صاحبه وعن أبيه وزوجته وهلم جرا، إذن هذا الانفصال الذي يحدث لمن آمن بالقرآن يماثل السحر في نظر الوليد.

معنى "يؤثر".

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾ وصف السحر بأنه "يؤثر" له معنيان:

الأول: بمعنى أنه أثر، وكأنّ الوليد يقول: إن هذا إلاّ سحر مأثور، أي معروف منقول عن غيره، ينقله السحرة جيلاً بعد جيل.

الثاني: "يؤثر" من التأثير بمعنى أنّ القرآن سحر مؤثر، لأنّ السحر على قسمين: سحر شديد يؤثر، وسحر غير مؤثر، تأثيره بسيط، يريد الوليد أن يقول: إن القرآن من السحر المؤثّر، وقد أراد أن يذم القرآن فمدحه من حيث لا يشعر، إذ أنّ القرآن سحر مؤثر في الناس، ومعنى كلامه حينئذٍ، كقولنا: سحرنا فلان بكلامه، إذا تكلم بمنطق وبلاغة.

محاولة الوليد ذم القرآن.

[1] إعانة الطالبين للبكري الدمياطي ج ١ ص ١٥٦.

قال الوليد عن القرآن: "إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أسفله لمغدق وإنّ أعلاه لمثمر" وهذا مدح للقرآن لحسن السبك فيه وحلاوته ألفاظه، وبعد كلامه عُوتِب بأنه خرج عن دين قريش وصبأ، فأراد أن يفر مما قاله فوقع فيه، لأنّه لما قال إن هذا إلاّ سحر يؤثر، أراد أن يذم فمدح من حيث لا يشعر، حيث أبان أنّ القرآن فيه منطق ومؤثرية وجاذبية كالسحر، وهو ليس بسحر، لأنّه كلام فيه اتزان ومنطق، وأسلوبه قوي متين، وعلى الأصول العقلية والعقلائية، إذن القرآن في أعلى مراتب الكلام، وهو كما قال الوليد: "وأنه ليعلو ولا يعلى عليه"، لأنّ القرآن يبرهن على حقانيته بنفسه، قال المتنبي:

وإذا استطال الشيء قام بنفسه وصفات ضوء الشمس تذهب باطلاً

الوليد وبشرية القرآن.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾.

أراد أن يشكك في كلام النبي ص عن القرآن بأنه وحي إلهي، وحذّر قريش من تصديق النبي ص بتبيان أنّه كلام بشريّ لا ينتمي إلى السماء وليس من عند الله تعالى وإن كان هو في حد ذاته كلاماً صحيحاً وقوياً متيناً، لكنه سحر، وقريش أقصى ما أمكنها أن تقوله إنّه شعر، والشعر كلام بشر، وعليه فإنّ الوليد لم يأتِ بجديد سوى ما قاله بأنّه سحر.

ضعف كلام الوليد.

أراد الوليد الطعن في القرآن بقوله عنه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، لكنّ كلامه تنقصه الحجة ويعتريه الوهن والضعف، فلا يقاوم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾[1].

دليل بطلان بشرية القرآن.

تحدى النبي ص الثقلين الجن والإنس أن يأتوا بآية واحدة تماثل القرآن الكريم في بلاغتها وقوة سبكها وحسن نظمها، وكونها غضة طرية لا تبلى، باعتبار أنّ الكلام قد يكون قوياً سبكه، حسنًا نظمه، لكنه ليس بغض طري، بمعنى أنه يبلى ولو بعد حين، لذلك نجد مئات بل آلافًا من النظريات والأفكار تهاوت كلها وسقطت لما اعتراها من الخلل والوهن، أما القرآن الكريم لكونه من عند الله تعالى فهو بالإضافة إلى قوة سبكه وحسن نظمه وبلاغته طري غض لا يبلى مع تعاقب الأيام ومرور السنين، وكلما تقدمت البشرية تبين لها إعجازه، وفي عصرنا الحديث توصل العلماء إلى إعجاز القرآن العلمي من وجوه متعددة.

الفارق بين القرآن وغيره.

إذن اتهام القرآن بأنه يماثل ما يتحدث به الآخرون من البشر ليس بصحيح، لأنّ قول البشر فيه تضاد وتناقض وتغير بالإضافة إلى كونه ليس بطري غض لا يبلى على مدى الدهور، وهذا فارق جوهري بين القرآن وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2].

---

١ الطارق: ١٣،١٤.

٢ النساء: ٨٢.

عذاب الوليد.

أوضح القرآن الكريم العذاب الشديد الذي سيصلاه الوليد، يخوف الله تعالى من العذاب الشديد في الآخرة، غير أنه أعدّ أنماطاً من العذاب تختلف عن غيرها لبعض الفئات من الناس وهم الذين يحاربون الله تعالى ويحاربون الرسل والأنبياء أو يكونون من المجرمين أو من التاركين ما أمر الله تعالى به أن يؤتى، أو يكفرون ببعض ما أنزل الله تعالى، أي أنّ للمجرمين أنماطًا من العذاب، وكذلك للطغاة الذين حاربوا الله والرسل، وكذا للذين لا يأتمرون بأوامر الله تعالى ولا ينتهون عن نواهيه كمن يترك الصلاة أو لا يؤدي الزكاة، قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

أمرهم الله تعالى بالواجبات فتركوها فاستحقوا العذاب الشديد، كذلك من يحارب الحق تعالى فإنّ جزاؤه ليس دخول النار فحسب، بل هناك دركات في النار كسقر الذي تحدث عنها الذكر الحكيم في عذاب الوليد، ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ تختلف في عذابها عن العذاب بالنار الأخرى.

حقيقة الذوبان في سقر.

سقر في اللغة بمعنى الذوبان[2] أي أنه الشيء الذي يذوب ويتلاشى، ولعل إطلاق الاسم على هذه النار باعتبار المسبب، لأنه تارة نطلق السبب على المسبب، وأخرى نطلق المسبب على السبب، ولكون النار لا يوضع فيها شيء إلا أذابته حيث لا يبقى منه شيء، أطلق عليها الذوبان، وهو هنا بمعنى التلاشي التام، يبين الله تعالى أنّ هذه النار أعدها لأصناف من الناس الذين حاربوه وكذبوا برسله، والسؤال هنا كيف يكون هناك ذوبان في النّار؟

---

[1] المدثر.

[2] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ج١٩ ص١٧١.

كي نشرح معنى الذوبان لابد أن نبين أنّ الله تعالى عظَّم هذه النار، فلا يمكن لأحد في عالم الدنيا أن يتصور ما هي عليه، قد يتبرم الإنسان من أنواع من النار في الحياة الدنيا، كالنّار التي تحدث من القنابل التي يمكنها أن تحرق الكرة الأرضية بأكملها كالهيدروجينية أو الذرية، لكنّ هذا النحو من القنابل لا يمثل شيئاً أمام سقر الموجودة، وذلك لأمور منها استمرار هذه النار وعدم انطفائها، ومنها: عدم موت المعذّب بها، ومنها: أمور ترتبط بعذاب كل وجود الإنسان، وليس الجانب المادي منه فقط، لهذا أكّد الله تعالى عظمة هذه النار، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾.

عظمة نار سقر.

قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾.

ولكي نفهم بعضًا من عظمتها وشدتها وقوة تأثيرها من خلال معنى "لا تبقي ولا تذر" لابد من المقارنة بينها وبين نار الدنيا، نار الدنيا يمكن أن تحرق شيئاً وتبقي آخر، ويمكن أن يكون تأثيرها على الجسد فقط، أمّا النّار التي تتحدث عنها الآية في الآخرة فهي لا تُبقي شيئاً أبداً، تؤثر على الجسد والروح، وعلى كلّ عوالم وجود الإنسان وما يرتبط به فهي نار من نمط خاص من العذاب، لا يُبقي جسماً ولا روحاً، ولا شيئًا آخر، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾[1]، ولعلّ الآية تتحدث عن غير من يعذب في سقر بنمط من النار يُبقي ويذر، أي أن هناك شيئًا يبقى، لكنّ سقر هي التي لا تُبقي ولا تذر، فهي نمط من العذاب الشديد لا تبقى معه الروح، ولا يعني ذلك انعدام الروح، بل المعنى أنّ الإنسان يتلاشى ويذوب ثم يعود بقدرة الله تعالى، ذوبان الجسم وبقاء الروح معذبة، ثم عودة الجسم إليها، ولعلّ هناك معنىً دقيقًا هو أنّ الوجود الحقيقي للإنسان ولشخصيته يتلاشى ثم يعود، وعقولنا قد لا تُدرك ذلك.

---

[1] النساء:٥٦.

إذن أولى سمات "سقر" ما يرجع إلى أنّ حقيقتها الذوبان، بنحوٍ يكاد أن لا يوصف، أشار إليه الذكر بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾، عقل الإنسان في عالم الدنيا لا يدرك هذا المعنى لنقصه في الإدراك، وهناك كثيرٌ من الأمور لا يصل إليها العقل أفصح عنها القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ٧٠﴾[1]، قال العلامة الطباطبائي: إن تبديل السيئة إلى حسنة هو انقلاب للسيئة، وهذا الانقلاب تغيّر ماهوي، لا يدركه العقل، لكننا نؤمن بقدرة الله تعالى اللامتناهية فنقبل ذلك، أمّا عقولنا فلا تدرك معنى تبدل السيئة إلى حسنة، لأنّ الشيء إذا تحقق ووجد ثم انعدم فهناك عشرات الإشكالات التي تؤكد عدم إدراك العقل لهذا، وهكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾.

بيان معنى عدم بقاء الروح:

لا تنعدم الروح، غير أنّ القرآن الكريم أشار أن لا شيء يبقى من الإنسان، لا روح ولا جسد، تذوب روحه ويتلاشى جسده.

قد يقول قائل: إنّ هذه مبالغة في التعبير.

لكننا إذا حملنا اللفظ على الحقيقة سنجد أنّ الروح تذوب وتتلاشى ثم تعاد كما يذوب الجسد ويتلاشى ثم يعاد من جديد، وهذا أمر لا يدركه العقل، أفصح عنه القرآن الكريم.

[1] الفرقان: ٧٠.

الوضوح والبروز في نار سقر.

من سمات سقر كونها بارزةً واضحةً بينةً، والمجرمون الطغاة البغاة والمتمردون على الله تعالى فئات ثلاث: المجرم والطاغي والمستكبر المحارب لأنبياء الله ورسله، المتمرد على أوامر الله تعالى الذي لايأتمر ولاينتهي، هؤلاء تكون النار بادية وظاهرة لهم.

سقر نار المعصية.

بحث العرفاء في المعصية فقالوا: إنّ من اقترف معصية أو ظلماً فقد دخل النار حقيقة، والنار هي نفسه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾[1].

أي أنّ المال الذي يأكله هو النار والسعير، لكنّه غير ظاهر في هذا العالم، –حقيقته خفية– تتجلى حقيقة النار والسعير والاصطلاء عندما تنكشف الحجب في عالم الغيب، أما في عالم الدنيا فلا يشعر بكونه يأكل سعيراً ولا يحس بأنه يأكل ناراً، لكنه إذا انتقل إلى عالم الآخرة وجد نفسه يأكل ناراً ويصلى سعيراً.

البروز هو الظهور وهي سمة ثانية للنار عبّر عنها الحق تعالى في آية أخرى بقوله: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩﴾، أي، أنها ظاهرة بادية، شبيهة بالشمس بالنسبة لنا، وكذلك نار هؤلاء المستحقين، تكون بمنتهى الظهور لهم.

[1] النساء: ١٠.

تعدد خزنة النار.

قوله تعالى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، جعل الله تعالى لخزنة النار عددًا من الملائكة، عليهم رئيس اسمه مالك، وهو خازن النيران، وخزنة النار عددهم تسعة عشر، وقد فسر هذا العدد بتفسيرين:

الأول: أن عددهم تسعة عشر شخصاً من الملائكة. الثاني: أن عددهم تسعة عشرة مجموعة من الملائكة، وكلا التفسيرين فيه احتمال وله مؤيدات، فالملائكة الذين يتولون العذاب أو قبض الأرواح أو التكريم والعناية بالمطيعين والمؤمنين الخيرين في عوالم الآخرة هم مجموعات، والتسعة عشر الذين أفصح عنهم الذكر يمثلون رؤساء لهذه المجاميع، أي، أنّ كل مجموعة عليها رئيس، فهم تسعة عشرة مجموعة لخزنة النار، وهناك سؤال يطرح: هو أنّ هذا العدد لكل دركات جهنم أو لدركة واحدة؟

يرى بعض المفسرين أنّ العدد خاص بسقر[1]، لكن ما يبدو من الآية وغيرها من آيات القرآن أنّ كل دركات جهنم عليها تسعة عشر رئيساً، قد يكون للرؤساء والمسؤولين الكبار من الملائكة الذين هم خزنة جهنم أعوان وجنود كثيرة، لكن الذي جاء في الكتب السماوية أنّ خزنة جهنم هم بعدد تسعة عشر، لذا نجد – كما سوف يأتي – أنّ اليهود أرادوا أن يختبروا النبي (ص) بصدقه وحقانيته، فسألوه عن عدد ملائكة العذاب لجهنم، فنزل الوحي يبين ذلك، يبدو أنّ الكتب السماوية السابقة استعرضت هذا العدد، أي أنّه لا يختص بدركة من دركات جهنم وهي سقر بل كل دركاتها المسؤول عنها تسعة عشر ملكاً من ملائكة الله العظام الذين أوكل لهم عذاب جهنم.

[1] تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج١٠ ص ١٨١.

حكمة العدد:

قد يثار تساؤل عن سبب التخصيص بهذا العدد؟

وهناك جواب عام عن ذلك يرتبط بحكمة الله تعالى في كل ما يصدر عنه، فإنّ أفعاله معللة بحكم ومصالح بعضها بيّنٌ جليٌ، وبعضها الآخر لا يصل إليه عقل الإنسان، من جملة الأمور التي لا تصل عقولنا إليها أي أنّ العدد المحدد لملائكة النّار، وكذلك الأعداد المحددة الأخرى، ككون السماوات والأرضين سبعاً سبعاً، نجزم بوجود حكمة لا نعرفها، كذلك كون الشهور عند الله اثني عشر شهراً، وهكذا عدد ساعات اليوم الذي نعيشه لا نعرف مغزاه، فهناك أسرار أمور لا يصل إليها عقل الإنسان مهما فكّر.

نعم؛ يطّلع على كنهها المعصوم، إذْ أنّها ترتبط بحكم ومصالح خفيّة، وإبانة العدد هاهنا قد يستهزئ به بعض الناس إذا سمعوه، لكنّ بعضًا آخر وهم المؤمنون يزدادون إيماناً، لأن المؤمن لديه قواعد مسبقة يبني عليها أسس وركائز إيمانه، فهو يعتقد أن الله تعالى حكيم لا يفعل عبثًا، وكلّ ما يصدر منه لحكمة، غاية الأمر أنّ بعض الأمور لا يدركها العقل وبعضها الآخر ظاهرة بيّنة.

الامتحان في عدد خزنة النار.

بيّن الله تعالى جنس التسعة عشر فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[١]، أي أنّه تعالى جعل خزنة جهنّم وكذلك خزنة الجنّة من الملائكة، أمّا خصوصيّة العدد فقد أوضحت الآية ذلك، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢]، يريد الله تعالى أن يمتحن الإنسان في عباداته وعلاقاته بالآخرين وعلاقة الآخرين به، ومن جملة الامتحانات التي يتحدث عنها الحق تعالى هو الامتحان في عدد خزنة النار،

---

[١] المدثر:٣١

[٢] المدثر: ٣١.

وهو امتحان ليس بسهل بل هو صعب، إذْ أنّ الآية ما إن نزلت حتى انبرى الكفار والمشركون لها بالسخرية، روي عن ابن عباس أنّها لما نزلت ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم[١]، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين[٢].

القدرات الهائلة للملائكة.

وصل الحدّ بالمشركين في الاستهزاء والسخرية بالملائكة العظام إلى أن يُصوروهم كسائر البشر، بحيث يمكن التصدي لهم والتغلّب عليهم، ويتجاهلون قدرات الملائكة التي يستطيعون من خلالها أن يغلبوا مدنًا بأكملها في أقل من جزء من الثانية، إذْ أنّ لهم عليهم السلام ولاية تكوينية على الكون، قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾[٣]، منحهم الله تعالى قدرات لا حدود لها، كما تحدث القرآن عن تدميرهم لقوم لوط فقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾[٤]، أو قوم صالح قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ

---

[١] العدد الكثير. (معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٢ ص٣٠٨).

[٢] الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي ج٢٠ص٨٨.

[٣] النازعات: ٥.

[٤] هود: ٨٢.

﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1]، أو قوم هود أو قوم شعيب أو غيرهم من الأمم السابقة التي تعرضت لعذاب الله تعالى بسبب تكذيبها لأنبيائها، إذ أنّ الملائكة قامت بإنزال العذاب بأمر الله تعالى، وبلمح البصر تغيرت المعادلة الكونية بأكملها وأصبح العالي سافلاً والسافل عالياً، وغيروا وجه تلك المدن المتطورة الراقية بسبب الطغيان والكفر والمعاندة للحق تعالى، فملائكة الله تعالى لا حدود لقدراتهم، والإنسان يجهل تلكم القوة ويتمسك دائمًا بالقدرات المادية.

قدرات ممنوحة للخلق.

كشف الله تعالى النقاب عن بعض القدرات التي يعطيها لبعض خلقه، كما تحدث القرآن عن النّبي سليمان لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس، ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[2]، أبدى العفريت قدرته على جلب عرش بلقيس وكرسي المُلك الذي تجلس عليه من مسافة بعيدة –من اليمن إلى فلسطين– قبل أن يقوم نبي الله سليمان من مقامه، ويعني ذلك أنّ لديه قدرة على التصرف في الزمان والمكان، وقد تحدّث القرآن الكريم بعد ذلك مباشرة عن قدرة أكبر من تلك الكائنة للعفريت لأحد مخلوقاته ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[3]، الذي عنده علم من الكتاب، هو آصف بن برخيا وصي سليمان (ع)، لديه قدرة على جلب عرشها في جزء من الثانية، وهي قدرة هائلة كبيرة أعطاها الله تعالى لبعض أوليائه، وهذه قدرات خارجة عن قوانين المادة التي يعرفها البشر، كما أنّ معاجز الأنبياء كانت من هذا الباب، أي أنها قدرات منحها الله تعالى

---

[1] هود: ٦٦،٦٧.

[2] النمل: ٣٨، ٣٩.

[3] النمل: ٤٠.

لبعض عباده للتدليل على عظمته تعالى، وأمر الأنبياء أن يُذكِّروا الناس بقدرته تعالى، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾[1]، أي ذكِّرهم بتلك الأزمة التي ظهرت فيها القدرة اللامتناهية للحق تعالى.

موقف الكفار من عدد الخزنة.

تفصح الآيات القرآنية أنّ عدد تسعة عشر لخزنة النار، وهو امتحان من الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذ أنّ الذين كفروا سوف لن يدركوا الحكمة من العدد، وسيستهزؤون بالعدد، فيزداد بعدهم عن الحق.

أهل الكتاب وعدد الخزنة.

أما اليهود والنصارى وأصحاب الكتب السماوية فإن عدد خزنة جهنم موجود في كتبهم، لذا اختبروا النبي (ص) بعدد ملائكة العذاب، فنزلت الآية ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾، وعليه فإن ذكر العدد لأصحاب الديانات السابقة يجعلهم على بينة من الأمر ويقين في كون الجهة التي أتت بالعدد هي وحي سماوي، إذ أن ما لديهم هو الذي جاء به الذكر الحكيم.

تأثير ذكر عدد الخزنة.

ثم تبين الآيات أنّ ذكر العدد له أثر كبير على المؤمنين في ازدياد إيمانهم، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾[2]، وذلك أن المؤمنين عندما يعلمون أنّ عدد خزنة جهنم مذكور في الكتب السماوية السابقة سيترسخ الإيمان بالدين الإسلامي في قلوبهم، وسيزدادون يقيناً بأنّ

---

[1] إبراهيم: ٥.

[2] المدثر: ٣١.

الرسالات السماوية مصدرها واحد، وإن طرأ على بعضها تحريفات، غير أن بعضها الآخر لا يزال صحيحًا، وتلك فائدة كبيرة، أن يزداد المؤمنون إيماناً، ويؤكد للذين أوتوا الكتاب حقانية الإسلام، فيزول ارتيابهم.

المنافقون وذكر عدد الخزنة.

ثم تحدثت الآية عن تأثير العدد على المنافقين والكافرين، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[١]، عبّر القرآن الكريم عن المنافقين بأنهم هم ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، وهو تعبير ورد في القرآن الكريم في آيات عديدة، لكونهم يحاولون دائماً الاستهزاء والسخرية وتحريف كل ما جاء به القرآن، وعملهم هو نفسه ما يقوم به الإعلام الحديث من صحف ومجلات وفضائيات موجهة تحول الحق إلى باطل والباطل إلى حق، ليؤثروا على كثير من الناس، لأن أكثر الناس لايبحثون في المعلومة كي يصلوا إلى الصواب، إن ذلك يتطلب من الإنسان بصيرة وفهمًا عالٍ لا يتوافر لدى الأكثر.

ثم عطف القرآن عليهم الكافرين، لأن الفئتين – الكفار والمنافقون – سوف تستمران في عنادهما ومضادتهما للحق، ولن يؤمنوا به، ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[٢]، يستهزئ الكفار والمنافقون من ذكر العدد لكونه عددًا قليلًا، فكيف سيقوم بمهمة التعذيب والإحراق بالنار؟!

وهي نظرة تدل على قصور وجهل بعالم الوجود وقوانينه المترابطة بين عالمي المادة الذي نعيشه والعالم اللامرئي، فلا يمكن لتلك العقول بمحدوديتها أن تدرك أسرار عالم الوجود ببعديه المادي واللامادي، وحينئذ سيدفعهم ذلك الجهل للسخرية والاستهزاء،

---

[١] المدثر: ٣١ .

[٢] المدثر: ٣١.

﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

الهداية التكوينية والتشريعية.

تستمر الآية في الحديث عن مبحث هام ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، لتبين أن الهداية والضلال من الله تعالى، وهو بحث هام يدفعنا لبيان قسمي الهداية، التشريعية والتكوينية، الهداية التشريعية تتحقق بإرسال الله تعالى الرسل وبعث الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وتهيئة الأسباب ليصل الإنسان إلى الحق، أما الهداية التكوينية فترتبط بموجودات الكون والقوانين المتحكمة فيه وفيها، وهي هداية من الله تعالى للموجودات كي تصل إلى كمالها المنشود، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾[2]، وكلا الهدايتين ترجعان إلى الله تعالى.

إذن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، تبيان أن الهداية التشريعية من الأنبياء والرسل، وليس الهداية التكوينية، فإن الإنسان إذا سلك الطرق الطبيعية وأخذ بالأسباب التي أرادها الله تعالى لهدايته سيصل إلى نتائج باهرة وهداية تامة، أما إذا عاند وأصرَّ على ترك تلك الطرق التي جعلها الله تعالى سيصل إلى نتائج عناده، وهو الضلال.

تعلق المشيئة الإلهية بالهداية والضلال.

تعبير القرآن الكريم دقيق ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، لأن الهداية والإضلال لهما حيثيتان:

---

[1] المدثر: ٣١.

[2] طه: ٥٠.

الأولى: أنّ ينسب إلى الله تعالى الهداية لكونه هو المعطي للقدرة، فهو الذي منح الإنسان القدرة، والفعل وإن صدر من الإنسان لكونه مختاراً في أفعاله، إلا أنّ القدرة هي من عنده تعالى، لأنه المعطي المانح لها، فنُسب الفعل إليه تعالى لهذه الحيثية.

الثانية: النظر للفعل باعتباره منسوباً للإنسان، لأنّ الفعل يرجع إلى اختياره، أي أنّه هو من يشأ الهداية فيهديه الله، ومن يشأ الضلالة فيضله الله تعالى، فمن أخذ بأسباب الهداية التشريعية سيهتدي تكويناً، ومن أخذ بأسباب الضلالة تشريعاً سيضله الله تعالى، وبالتالي فإن النتيجة ستظهر بوضوح، فمن سار في الطريق الصحيح وصل إلى العواقب الحميدة، ومن سار في طريق الغواية والضلالة وصل إلى العواقب الوخيمة السيئة، أي أنّ الله أعطاه القدرة للوصول إلى الهداية والضلالة، فإن استخدم القدرة الممنوحة له في الخير فقد شاء الهداية، وإنْ صرفها في السوء فقد شاء الضلالة، وعندما ينظر إلى أنّ الله تعالى هو المعطي للقدرة في كلا الحالين سيرتبط ذلك بسلسلة عالم الأسباب والمسببات التي ترجع في نهايتها إلى الله تعالى، فتكون الهداية والإضلال من هذه الحيثية يرجع سببها إلى الله تعالى، وهي بهذا المعنى من عنده تعالى.

قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[1]، أي أن الله تعالى يُعطي ويُمَكِّن من يشاء الخير ومن يشاء السوء أيضاً، فيرزق الناس جميعاً، غير أن بعضهم سيصرف الرزق والنعمة في المعصية، وبعضهم الآخر سيصرف رزقه ونعمته في الطاعة، وذلك ما نجده في نعمة البصر التي أعطانا الله تعالى إياها، فإن من يقرأ القرآن سينال الثواب، أما من يشاهد البرامج المحرمة في التلفاز فإنه قد كفر بنعمة الله، إذن النعمة تستخدم في الخير والشر.

[1] الإسراء: ٢٠.

تعداد جنود الله تعالى.

تواصل الآيات الحديث حول أنّ عدد خزنة النار هو إشارة إلى كونهم رؤساء لمجموعات مسؤولة عن مجازاة المجرمين، وليس العدد هو إحصاء لجميعهم، بل إنّ عددهم كثير لا يحصيه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾، فهو تعالى الوحيد الذي يعلم عدد جنوده، والمقصود من الجنود هو كل شيء في الكون، أي أن كل موجود هو جندي لله تعالى، فالإنسان جندي من جنود الله تعالى، خصوصاً الأولياء الصالحين، الذين أشار إليهم دعاء شهر رمضان {ولا تهني بكرامة أحد من أوليائك}[1]، ومعنى الدعاء أن لا تجعلني أُسيء إلى ذلك الولي، فتكون إساءتي إهانة لي عندك، وإكرام للولي المساء إليه، وقد تحصل الإساءة بتأديب الولي، فإن تأديبه كرامة له عند الله، وإهانة لغيره، وعليه فإن الولي جندي من جنود الله تعالى، رغم أن كل إنسان هو جندي من جنوده تعالى، بل أن كل ذرة في الكون هي جندي من جنوده تعالى، ذلك أن الإنسان يمكن أن يُسلط على نفسه فيُدمرها، يُخطط، فيكون في تدبيره تدميره، كما كان ذلك للوليد ولليهود الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، فهم يخططون ظنًا منهم أن ما يضعونه من خطط يحقق لهم الانتصار على الإسلام، لكن خططهم أدت إلى دمارهم وهلاكهم، وعليه فإن الإنسان هو جندي لمحاربة نفسه بإذن الله، قال الإمام زين العابدين (ع) في دعاء أبي حمزة الثمالي: { يا سيدي فإنك إن وكلتني إلى نفسي هلكت}[2]، من أُوكِل إلى نفسه طرفة عين سيتلاشى وينتهي، لأنّ يد اللطف والرحمة والهداية من عند الله تعالى، وإذا ارتفعت عن شيء أصبح ما يصدر منه يصب في طريق غوايته، فيزداد عتواً ونفوراً وغياً وضلالة، إلى أن يؤخذ أخذ عزيز مقتدر، كفرعون وهامان وقارون.

---

[1] إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس ج١ ص١٠٥.

[2] إقبال الأعمال للسيد ابن طاووس ج١ ص ١٧٠.

تأثير جنود الله تعالى.

إذن كل ذرة في الوجود هي جندي من جنود الله تعالى، فجوارح الإنسان وعقله وفكره من جنود الله تعالى، وقد توجب للإنسان السخط والمقت الإلهي، كما مرَّ علينا ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾[1]، حيث إنّ الوليد فكر واستخدم عقله بطريقة خاطئة فكان تدبير عقله في تدميره، ذلك أنّ الإنسان قد يجهل أو يتجاهل أو يغفل عن أنّ الكون كله بيد الله تعالى، وقد مرَّ علي في هذا المجال قصة جميلة تبين أنّ الإنسان مهما أتاه الله تعالى من المال والفكر والعلم لا يعني ذلك أنّ الأمور أصبحت بين يديه.

والقصة عن أحد الأثرياء كان لديه كثير من المال، فقال شخص له كما قيل لقارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2]، أي، طُلِبَ منه أن يعمل خيراً بما لديه من أموال قبل أن تزول الأموال من بين يديه، فقال الثري: إنّ الله إذا أراد أن يُفقرني يحتاج إلى شهر كامل يفكر كيف أُصبحُ فقيراً؟! أي مضمون كلامه أن الله تعالى يحتاج أن يخطط لمدة شهر حتى يصبح هو من الفقراء لكثرة أمواله وتنوعها من عقار ومجوهرات وأرصدة وبورصة وبنايات تجارية ضخمة وغير ذلك.

فقال له الناصح: اتقِ الله، إنّ قدرة الله تعالى كبيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[3]، ثم ذهب الثري إلى بيته لينام، وحدثت

---

[1] المدثر: ١٨، ١٩.

[2] القصص: ٧٧.

[3] يس: ٨٢ .

مفاجأة في الصباح فانتهى كل الثراء والمال والجاه، ولم يجد المسكين حينئذ إلا ما يستر عورته، فالتقى به ذلك الناصح الذي حاوره وسأله متعجباً عن سبب ما وصل إليه من حال، فأجابه قائلاً: كان عندي ولد صديق لابن الملك وخرجا معًا للصيد، ووجه ابني بندقيته ليصطاد لكنه أخطأ وأطلق على ابن الملك، فقتله، فأتى الخبر المفجع للملك، فأمر بسلب الثري وتجريده من مناصبه وأمواله وكل ما يملكه.

عظة قرآنية في قصة.

هذه القصة التي ذكرناها أورد القرآن الكريم قصة مشابهة لها، تتحدث عن رجلين كان لدى كل واحد منهما بستان وكانا يأكلان ويتحاوران: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾[1].

إنّ الله تعالى إذا أراد شيئاً تحقق فوراً فقد يتحول الثري إلى أفقر الفقراء، وقد يتحول الفقير إلى غني، هو تعالى يعز من يشاء ويُذل من يشاء، وهو الذي يُسخر الأمور في صالح الإنسان والدنيا تارة تحارب الإنسان، فيسعى في تهيئة الأمور لتكون في مصلحته، وإذا بها

[1] الكهف: ٣٢- ٤٢ .

تنقلب عليه، فلابد أن يلتفت العاقل إلى هذه المعادلات التي تحدث في الكون، ويدرك أنّ كل شيء من جنود الله تعالى، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وجنوده تعالى بيده، ولا يعلم الإنسان شيئًا عنها، وهو مأمور باللجوء إلى الله تعالى من خلال العبادات والأذكار التي ترسخ في ذاته الارتباط بالله تعالى على الدوام، ولهذا حثت الروايات على المداومة على الأذكار، قال الإمام الصادق (ع): {من قال في دبر صلاة الفجر وفي دبر صلاة المغرب سبع مرات " بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " دفع الله عز وجل عنه سبعين نوعاً من أنواع البلاء أهونه الريح والبرص والجنون وإن كان شقياً محي من الشقاء وكتب في السعداء}[1]، أي أنّ تكرار هذه الأذكار صباح مساء يرسخ معانيها في وجدان الإنسان فيستشعر أنّ الحول والقوة بيد الله تعالى.

التذكير في آيات القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

هناك ثلاثة أقوال في الضمير:

الأول: إنه يرجع إلى سقر[2]، فالنّار تذكرة للبشر، كي يتذكر الإنسان وينتبه إذا تعرض للابتلاء والعذاب، لأنّ بعض الناس تنصحه وتحذره من عواقب بعض الأعمال الصادرة منه، لكنه لا يتعظ ولا يقبل، غير أنه بمجرد أن يصاب ببلاء أو مرض يتأثر فيرجع إلى الصواب، وهناك من لا يتعظ إلا بعد أن يصاب ولده أو أحد أقاربه أو أصدقائه ببلاء أو مرض، حينئذ يتوجه إلى الله تعالى وإلى العبادة والأذكار بسبب ما أصابه من بلاء ومرض، فتجد أنّ تلك القوة وذلك النشاط يصبح ضعفاً، وأحياناً لا يستطيع الحراك، وحينئذ يتذكر ويتعظ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾، إنّ النار – سقر– التي تُذوب الأشياء فيها تذكرة، أي أنّ عذاب الآخرة يُذكّر الإنسان ويرجعه إلى جادة الصواب، وإن كان بعض الناس لا يتذكر ولا

[1] وسائل الشيعة للحر العاملي ج ٦ ص ٤٧٧.

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ج١٠ ص١٨٣.

يتعظ بذلك، فإنّ بعضًا عندما ينصح بعدم السرقة لما أعده الله من عذاب للمعتدي على مال الآخرين، فإنّه عندما يُبيّن له أنّ من ترك السرقة عوّضه الله تعالى بالجنة، سيرد بقوله: عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، يريد أن يستمتع بالمال وينسى عذاب الآخرة، لكنه بمجرد أن يصاب بمرض أو بلاء يرجع إلى الله تعالى، وهذا أمر واقعي، فإنّ بعض الناس قد يعترف بأنه أخذ مال فلان دون رضاه، وهو نادم على ذلك فيكثر التوابون خصوصاً في شهر رمضان، وكذلك في الحج، والله تعالى هو الغفور الرحيم، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1].

الثاني: أنّ الضمير يرجع إلى سور القرآن[2]، لأنّ سورة المدثر تحكي ما كان من أمر الوليد في مدحه للقرآن ثم مجيء أبي جهل له وتأنيبه ثم تفكير الوليد بطريق للخروج من مدحه للقرآن، إذن القرآن يبين أنّ هذه السورة أو الآيات القرآنية هي للذكرى، وليست هي سحراً كما ادّعى الوليد، أي أنّ الآيات تُذكر الإنسان بمآله ومصيره وعاقبته.

الثالث: أنّه يرجع إلى الملائكة الذين عدّهم الله تعالى بتسعة عشر، فإنّ العدد عبرة للبشر للتعرف على قدرة الله الكبيرة التي لا يحدها شيء.

أثر تذكير آيات القرآن.

ثم تبين الآيات القرآنية نماذج للتدبر والتفكر من خلال التأمل في الآيات الكونية: ﴿ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

إنّ القرآن الكريم يذكّر الناس بآيات الكون، لتأثيرها الكبير على الإنسان، قال أبو العتاهية:

وفي كُل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحد[3]

كل شيء في الكون يُذكِّر بعالم الآخرة، فهو يفصح عن التغيرات التي تحدث فيه.

---

[1] البقرة: ١٦٠ .

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ج١٠ ص١٨٣.

[3] الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية جمعه أحد الآباء اليسوعيين ص٧٠.

أهمية القمر وارتباطه بالموجودات.

من الآيات التي ذكّر الله تعالى بها في أكثر من آية لينبه الإنسان بعظمتها القمر، ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾، فهو آية من آيات الله تعالى وله تأثير كوني على حياة الإنسان، وإن ظنّ أكثر الناس أنّ الحياة ترتبط بالشمس فقط، لكن الصحيح أنّها ترتبط بالشمس والقمر معاً، لذا، فإنّ حركتي المد والجزر في البحار ترتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقمر، وهو يؤقت للناس الزمان، فيعرف الإنسان الزمان بواسطة الشمس وكذلك بالقمر، وهو أيضاً يعطي جمالاً وضياءً للإنسان، لذلك، تغزّل العشاق والشعراء به كثيرًا، وللقمر أسرار كثيرة ومتعددة، ولهذا أقسم الله تعالى به لحكمة تترتب على القسم به وبالليل والصبح- ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾- وهي إلفات الإنسان إلى التغيرات الحادثة التي يرتبط بعضها ببعضها الآخر، وقد أشرنا إلى القمر وبعض تأثيراته غير أنّ هناك ارتباطاً بين القمر والليل، فإنّ القمر يمر بمراحل متعددة من كونه هلالاً ثم يكبر حتى يصبح بدراً ثم يصغر إلى أن يكون محاقاً، وهذه المراحل والتغيرات التي تحدث للقمر تتم في الليل، وتُدلل على شيء يلفت فكر الإنسان وانتباهه وهو أنّ الكون يسير نحو غاية وهدف، وذلك يدفع الإنسان إلى أخذ الحذر والحيطة والتفكير مليًّا، ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وكما أنّ للقمر بزوغًا وإدبارًا من أول الشهر إلى نهايته وحركة تكاملية من جهة وحركة أخرى تدلل على الانتهاء، كذلك عمر الإنسان، قال بعض العلماء: إنّ التغير ليس بمقصور على الإنسان فحسب، بل يشمل كل مفردة من مفردات الوجود، ويعم جميعها، فالأمم مثلاً لها بزوغ واكتمال بصورة بدر ثم تناقص بنحو تدريجي ثم انتهاء، فإدبار الليل له ارتباط وثيق بحركة القمر، ويذكر الإنسان بإدبار عمره، وتلاشي الزمن بتصرم الوقت.

تأثير الصبح:

الصبح آية كونية لها علاقتها بالموجودات الأخرى ولها تأثيرها على ما حولها، خصوصًا عند إسفار الصبح، ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾، فالإشراقة هي التي تضيء الكون وتغير مظاهر الأشياء وتجعل الحياة تدب في مفردات الكون بحيوية كبيرة.

المنهج الأخلاقي في القرآن.

هناك مسألة غاية في الأهمية ترتبط بالتغيرات في الكون، إذْ أنّ القرآن الكريم له مسلك أخلاقي يلفت انتباه الإنسان إلى تلكم التغيرات التي قد تجُر الإنسان إلى الأرض فتجعله يرتبط بأغلالها، بينما كان ينبغي له أن يرتبط بمحدث هذه التغيرات، وهو الحق تعالى ليستفيد منها في الوصول إليه، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، أي أنّ المطلوب هو التأمل والتفكير، وهذه الآيات لها مغزى وعبرة مع تنوعها، إذ أن بعضها يُدلل على البزوغ، وبعضها يدل على الإسفار، ومنها ما يدل على الظلمة كالليل، لكنه قد يستنير بالقمر، ويستفيد من ضوئه ليصل إلى ما يبتغيه ويحقق ما يرجوه، وينعكس ذلك على حياة الإنسان التي قد تستولي عليها ظلمات كالحة، غير أنّه باستطاعته أن يُشعل ضوءًا من الأمل كي يصل إلى ما يريده، وبالتالي سوف ينبلج الإصباح والإسفار على حياته التي قد تكون قاتمة وغائمة، متلبدة بغيوم، روي عن النبي (ص): {الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً}[2]، وقال الإمام علي (ع): {الأمل رفيق مؤنس}[3]، فهو رحمة كبيرة للإنسان ورفيق مؤنس إذا أظلم طريق الحياة.

---

[1] الجاثية: ١٣

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج١ص١٠٢.

[3] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج١ص١٠٢.

المظاهر الكونية تذكرة.

إذن المظاهر الكونية تذكرة وعبرة، تُرجع الإنسان إلى ذاته فيتعرف على ربه، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1].

وهذه العبر والمواعظ يستفيدها الإنسان من المظاهر الكونية وهي مصابيح وإشراقات في حياته، يمكن بواسطتها الوصول إلى الله تعالى، لذلك أقسم الله تعالى بها ليلفت انتباه الإنسان إلى حركة غائمة وقاتمة، وأخرى مسفرة، وإلى نهاية سعيدة، فهناك قمر في الحياة الدنيا وهناك ظلمة قاتمة وهناك إسفار، وكل هذه المظاهر تمر على الإنسان في أوقات متعددة وكثيرة، لكنه لا يستفيد منها أخلاقيًا.

هناك نكتة جميلة في الآية ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ إذْ أنّ كلمة "كلّا" حرف ردع تتضمن نفياً، وإذا أراد شخص أن ينفي ما علق بذهن السامع ويرفع الاشتباه والخطأ لديه، سيقول له: كلا، أي أنّ هذا الأمر ليس بصحيح، ثم بعد ذلك يثبت ما يريده.

المظاهر الكونية وطغيان الإنسان.

أشار القرآن الكريم في الآيات السابقة إلى أنّ الوليد وصل إلى قمة طغيانه فكذّب بالقرآن الكريم وادّعي (إنه سحر يؤثر)، وأنّ بإمكانه أن يقضي على الرسالة بالخطة التي وضعها، بينما كان بإمكانه أن يزيل غلوائه ويدفع كبريائه بالمظاهر الكونية المتغيرة ليكون من أهل الهداية، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) ﴾[2]، طريق الهداية واضح وطريق الضلالة

---

[1] الروم: ٨

[2] الأعراف: ٣٠

كذلك، والإنسان يختار طريق حياته، وعليه أن يعلم أنّ حركة الطغيان يمكن أن تؤثر وقد تستمر أزمنة طويلة لكن هناك تغيرات يمكن أن تقضي عليها وتزيل ما فعله الطغاة وتستمر أيضًا أزمنة طويلة.

الملائكة والمظاهر الكونية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥﴾.

الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ يرجع إلى الآية السابقة التي تحدثنا عنها ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾.

ويمكن أن يرجع إلى سقر التي تعني الذوبان.

ويمكن أن يرجع الضمير إلى الآيات والسور القرآنية، لأنها عظيمة وكبيرة.

ويمكن أيضاً أن يرجع إلى الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله تعالى أمراً خصوصًا ملائكة العذاب التسعة عشر، لأنّ الكون بين أيديهم وليس النار فقط.

وقد يظهر ذلك من بعض خطب أمير المؤمنين (ع) التي أشار فيها إلى إمكانيات هائلة وقدرات كبيرة منحها الله تعالى للملائكة، قال (ع): {ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم}[1]، وقال النبي (ص): {ما من شيء مما خلق الله أكثر من الملائكة}[2].

إذن هم آية من آيات الله العظمية والكبيرة، لكنه يبدو أنّ إرجاع الضمير إلى آيات القرآن أو إلى جهنم أكثر تناسبًا ولا يحتاج إلى تأويل.

---

[1] نهج البلاغة للإمام علي ج١ ص ١٧.

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٤ ص٢٩٣٠.

أثر الإنذار على البشر.

قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

في الإنذار تخويف وتهويل وتذكير بالعواقب الوخيمة المترتبة على عدم القيام بالعمل، والرسول (ص) بشير ونذير، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1]، وآيات القرآن تبشير وإنذار، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾[2] أمّا جهنم فليس فيها إلاّ الإنذار، قال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾، إذا نظرنا إلى الإنذار فسوف يكون مرجع الضمير سقرًا، لكونه أقوى في التناسب وأوثق في الارتباط، أي أنه يمكن أن نرجع الضمير على آيات القرآن وعلى سقر وعلى ملائكة الله التسعة عشر، لكننا إذا نظرنا إلى آيات القرآن نجد فيها تبشيرًا وإنذارًا، ولذا سوف يكون إرجاع الضمير على سقر لكونها تجسد الإنذار فقط، ويكون ذلك أكثر تلاؤماً، غير أنّ هذا المعنى يقبل التأويل أيضاً، لكن مصب الكلام وظهوره في معنى، وقد يكون له معنى آخر، إذْ أنّ الظهور درجات فقد يكون معنى أكثر ظهوراً من معنى آخر، فإرجاع الضمير إلى سقر قد يكون بدرجة أوضح من إرجاعه إلى الملائكة أو إرجاعه إلى آي القرآن الكريم.

حركة الإنسان مع الإنذار.

بعد قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ جاءت الآية التي بعدها ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ لتبين تأثر البشر بالإنذار، إذْ أنّه مفيد لأصحاب الإرادات والعزائم والهمم

---

[1] سبأ: ٢٨

[2] مريم: ٩٧

[3] الليل: ١٤ .

الذين يحاولون جادين أن يتجنبوا المكاره، فهم الذين يشاؤون التقدم ويبتعدون عن جهنم، وهم الذين سيستفيدون من الإنذار، أمّا من لا عزيمة له ولا همة عنده فلن يستفيد، سواء كان هناك تخويف أو لم يكن، وسواء كان هناك إنذار أو لم يكن، كله سيان بالنسبة له، وكلا الصنفين متوافر بين الناس، أي أنّ هناك من إذا ذكرته ارتدع وخشي وخاف ووجل، وهناك من لا يسمع ولا يتأثر، والآية ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ناظرة إلى هذا المعنى في أنّ الذي يستفيد هو الذي يتأثر بالإنذار ويخشع فتكون له إرادة الخوف، أما من لا يخشى حين تحذيره من العواقب الوخيمة فهو لا يريد الاستفادة والتقدم، والآية ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ يحتمل فيها معنيان:

الأول: أنها تبين أنّ من شاء التقدم لجهنم التي أُنذر بها فهو باختياره يتقدم نحوها، ومن شاء وأراد التأخر عن جهنم والابتعاد لخوفه منها فباختياره أيضًا يبتعد عنها، وعليه فإنّ التقدم نحوها يفيد النقص.

الثاني: أنّ هناك من البشر من يتأثر بإنذار جهنم فيشاء لنفسه التقدم نحو مدارج الكمال لذاته، وهناك من يتأخر عن مدارج الكمال ويتقهقر متراجعًا إلى الوراء ومبتعدًا عن كماله الذاتي، إذن معنى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ أي في مدارج الكمال والتكامل الذاتي.

أمّا معنى ﴿ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾ التأخر عن هذا الكمال، وهذا المعنى الثاني يبين حالة التقدم والسير نحو مدارج الكمال المستلزم التأخر عن جهنم أو أنّ التأخر عن مدارج الكمال يؤدي إلى التقدم نحو جهنم.

الإنسان مرهون بعمله.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

تعبير موجود في تعبيرات الدارجة لدى الناس، إذْ يقولون: إنّ الإنسان مرهون بعمله، أي أنّ الأعمال التي تصدر من الإنسان تصبح مرهونة به.

معنى الرهن:

الرهن لغة: هو أصل يدل على ثبات شيء يمسك بحق أو غيره[١]، ويمكن توضيح معناه بمثال عملي، من أراد أن يقترض مبلغاً من المال من شخص، فسوف يطلب المقرض من المقترض رهناً كي يتوثق ويطمئن على ملكه وماله الذي أقرضه، وبعد إرجاع ماله إليه يُرجع ما أخذه رهنًا، وفي العادة تؤخذ الأشياء النفيسة والغالية كالذهب، إذن الرهن هو وثيقة عملية لضمان المال، ولهذا عرّفه الفقهاء بأنه وثيقة لدين المرتهن[٢]، والمرتهن معطي المال أو المُقرِض، فإذا تأخر المقترض عن السداد في الفترة الزمنية المحددة يستطيع المُقرِض أن يستنقذ ماله من الرهن الموجود لديه، أما الكسب في اللغة فيدل على ابتغاء وطلب وإصابة[٣]، وهو من المعاني الواضحة، يقال: تاجر بهذه السلعة كي تكسب، وللكسب معانٍ أخرى كالزيادة، ويأتي بمعنى الإحداث والإيجاد للشيء، أي أنّ شيئًا غير موجود إذا أوجدته فقد كسبته، ويمكن أن يكون للكسب كلا المعنيين، أي الزيادة وإحداث العمل وإيجاده، ولعله لذلك تتصف الأعمال الصادرة من الإنسان بالمعنيين، فمن صلّى فقد كسب، وقد أوجد وأحدث الصلاة، وإذا نُظر إلى الكسب بهذا المعنى ستصبح أي مفردة من الطاعة سواء كانت معاملة قول أو فعل يصدر من الإنسان من الكسب للإنسان، كسبه بمعنى أحدثه، وقد جاء بهذا

---

[١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٢ ص٤٥٢.

[٢] شرائع الإسلام للمحقق الحلي ج٢ ص٣٢٩.

[٣] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٥ ص١٧٩.

المعنى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[1]، الرقيب العتيد يسجل ما يصدر من الإنسان، لأنّه أحدث شيئاً جديدًا، وصحيفة أعماله سيكون فيها إيجادات متكررة لما يقوم به.

إذن الكسب بمعنى الإحداث، ويحمل معنى الزيادة لأنّ الشيء إذا صدر فقد أُضيف إلى الرصيد الحسن أو السيء، وعليه سيكون للإنسان رصيد منذ بدء التكليف إلى آخر يوم من حياته، بل أنّ بعض الفقهاء يرى أنّ رصيد الإنسان منذ كونه صبياً مميزاً لصحة عبادات الصبي، ثم يزداد أو يقل حسب ما يصدر من أعمال وأقوال، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾[2]، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ أنّ النجاة في الآخرة مرهون بالعمل، وما صدر من الإنسان سيؤثر في حياته الأخروية، فإما أن يُوثق به نفسه فتصبح مرهونة لجهنم، وإمّا أن يزيل الأغلال والقيود التي تبعده عن الله تعالى فتصبح طليقة سائرة نحو ربها ويكون مصيرها إلى الجنة.

الميزان في القرآن.

إنّ لله تعالى ميزانًا دقيقًا يزن به الأعمال، وهو أدق من الموازين الالكترونية التي توزن بها المعادن النفيسة كالألماس، لأنها موازين مادية، أمّا الميزان الإلهي فيزن المادية والمعنوية وتتغير به كل المعادلات، فمن يقيم علاقة مع صديق أو أخ فقد لا يستطيع أن يزن أعماله الحسنة التي قام بها تجاهه في مقابل ما صدر منه من هفوات أو أخطاء، وقد يأتي بعض

[1] ق: ١٨.

[2] القارعة: ٦ – ١١.

ويشوه صورة الصديق ويحاول أن يبين أنّ أعماله الحسنة قد ذهبت هباءً منثوراً بذلك الموقف أو بتلك الكلمة التي صدرت منه، لكن الإنسان يزن صديقه بما لديه من عقل وفكر ووعي وإخلاص، وعليه فلن يؤثر عليه الخطأ البسيط أو الهفوة.

الإمام علي ميزان حق.

لدى الإنسان أعمال حسنة وأخرى سيئة إما من الناحية المعنوية أو المادية، والله تعالى يزن الأعمال الحسنة بميزانه الدقيق، ومن مصاديق الميزان الإلهي أمير المؤمنين (ع) وكذلك الأنبياء والرسل (ع) بنحو عام، وقد عدّ ذلك السيد الطباطبائي من التفسير التطبيقي، أي أنّ الإمام (ع) هو المصداق الأكمل لإراءة الحق، فمن يزن عمله بلحاظ الإمام (ع) لكونه المصداق الأتم والأكمل، وكذا الحال بالنسبة للرسل والأنبياء، ولهذا عبّرت بعض الزيارات لأمير المؤمنين (ع): {السلام على ميزان الأعمال}[١]، أي أنه (ع) ميزان دقيق للأعمال التي تصدر من المؤمن، فإذا قاسها الشخص الكامل على الأمام أمير المؤمنين (ع) سيتبين له النقص الذي شاب أعماله، أي أنه إذا كان العمل الصادر من المؤمن فيه نقص من جهة من الجهات فعند قياسه بالتام الكامل سيتضح له جهات النقص، ويكون معنى قولنا في الزيارة: {السلام على ميزان الأعمال}، أي السلام عليك يا من تقاس أعمال الخلائق بعمله ليتبين نقصها من كمالها.

حقيقة الميزان.

أوضح الله تعالى في القرآن الكريم أنّ له ميزاناً دقيقاً، فقال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٢]، وأنّ عمل الإنسان إذا جُمع فزادت حسناته عن سيئاته سوف

---

[١] المزار للشهيد الأول ص٤٥.

[٢] الأنبياء: ٤٧.

ترجح حسناته، لأنها أكثر، وقد عبّر الإمام زين العابدين (ع) عن ذلك بتعبير دقيق فقال: { ويل لمن غلبت آحاده أعشاره} (البحار ج٦٨ ص٢٤٣)، أي أنّ الله تعالى جعل الحسنة بعشر، والسيئة بواحدة، وهي لا تتضاعف، وفي يوم القيامة إما أن ترجح السيئات أو ترجح الحسنات، ويطلب الإنسان من الله تعالى أن يرجح كفة ميزانه ليكون بيّنًا في رجحانه، غير أنه لو رجح قليلاً فإنّ كرم الله تعالى للإنسان سينجيه، وذلك شبيه بنتائج طلاب المدارس، فإنّ لهم مستويات متعددة –ممتاز وجيد جداً وجيد ومقبول– والمقبول ناجح رغم قلة درجاته، فهو حاصل على أدنى الدرجات، لكنه ناجح وينتقل للصف الذي يليه، كذلك ثقل ميزان العبد، فإنه سيكون لبعض الناس بمستوى مقبول لأنه حصل على أدنى مستوى للرجحان في يوم القيامة، وعلى العاقل أن يهتم بمصيره الأخروي وأن لا يكتفي بمستوى متدنٍ، بل يطمح لأفضل مستوى، لأن الموازين في عالم الآخرة تختلف عن الدنيا، وإذا كان الإنسان في الدنيا لا يرضى في معاملاته المادية بالاستفادة البسيطة والربح القليل في صفقاته، بل يتأثر إذا لم يربح إلا النزر القليل فإنّ عليه أن يحزن ويتألم لقلة حسناته.

قد يبذل الإنسان جهداً كبيراً لإتمام صفقة ويتفاوض ساعات طويلة، ومع ذلك لا يحصل إلا على ربح قليل، بل قد يتعرض للغبن والخداع في الموازين المادية في عالم الدنيا، ويمكن أن يحصل له ذلك في عالم الآخرة رغم أنه لا غبن ولا خداع من الله تعالى إلاّ أنّ الغبن سيظهر له من ناحية أخرى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[1]، أي أنه اليوم الذي ينكشف فيه المغبون الخاسر والرابح الظافر، ولا يعني ذلك أنّ من أتى بأعمال كثيرة من الطاعات والعبادات والخير ونظر له الناس أنه في القمّة أنه ربح الآخرة، فقد لا يكون مخلصاً في عمله لإشابته بالرياء، قال (ص): { إنّ الملَك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين إنه ليس إياي أراد بها}[2]، أي أنّ عمل العبد أصبح هباءً منثوراً لعدم إخلاصه لله تعالى، أو لأنه قضى على حسناته بمعصية من المعاصي كالغيبة

---

[1] التغابن: ٩.

[2] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ص١٠١٦.

فخسر أعماله الصالحة، قال (ص): {يؤتى بأحدٍ يوم القيامة يُوقَف بين يدي الله ويُدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي ! فإني لا أرى فيها طاعتي؟ ! فيقال له: إنّ ربَّك لا يَضِل ولا يَنسى، ذهب عملك باغتياب الناس، ثم يُؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي ! فإني ما عملت هذه الطاعات ! فيقال: لأنّ فلاناً اغتابك فدُفِعت حسناته إليك }[1].

وهذه الرواية تضيف معنىً أوسع للكسب في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ ويصبح مفهومه يشمل التأثير المتبادل بين الحسنات والسيئات.

معنى أصحاب اليمين.

تحدثت الآية المباركة عن شمولية في كون كل نفس رهينة بما يصدر عنها، إن كان خيراً جزيت به أو سوءً أُخذت به، وليست هي عامة للجميع، بل هناك استثناء أبانته الآية التي بعدها، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾، أصحاب اليمين مرهونون بأعمالهم أيضاً غير أنهم ذُكروا لتميزهم، إذ أنّ هناك تميزًا لأناس يخصون بالذكر، وهم أصحاب اليمين، وهناك نظريتان في أصحاب اليمين:

الأولى: إنّهم الذين لم تصدر منهم خطايا، لا صغائر ولا كبائر.

أقسام العصمة.

قد يأتي سؤال هل هناك أناس لا تصدر منهم خطايا لا صغائر ولا كبائر غير الأنبياء والرسل والأوصياء (ع)؟

نعم، ولكنهم قلة، حيث إنّ هناك من تتيح له الظروف التي تكتنفه وتحيط به أن يعيش في بيئة صالحة منذ نعومة أظفاره، وبالتالي لا تصدر منه ذنوب لا صغائر ولا كبائر،

[1] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٣ ص ٢٣٣٠.

ويعبر عنه بأنّ لديه عصمة مكتسبة، أي أنه ينفر بطبيعته من الذنب، فهو لا يرضى أن تغتاب أحداً بحضوره، ويبتعد عن الكذب، وشرب الخمر والزنا وغير ذلك من المعاصي الصغائر والكبائر، فيصبح من أصحاب اليمين الذين لديهم عصمة مكتسبة.

العصمة على قسمين:

الأول: عصمة من لدن الحق تعالى، وتكون لمن اصطفاهم الله تعالى واجتباهم، ومن أوضح مصاديقها النبي (ص) وأهل البيت (ع)، فإن لديهم عصمة لدنية، وهي منحة إلهية جبلهم الله تعالى عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

الثاني: عصمة مكتسبة تتأتى عبر اختيار الإنسان منذ صغره يتربى على مبادئ الخير والفضيلة، فلا يصدر منهم ذنب، وقد نقلت قصص عن بعض العلماء كالرضي والمرتضى بأنهما كانا على درجة كبيرة من تقوى الله تعالى والبعد عن الذنوب، لعلها من العصمة المكتسبة.

الثانية: أنّ أصحاب اليمين هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾[2]، فمن أعطي الكتاب بيمينه يوم القيامة أبرزه وأظهره، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾[3]، أما من أُعطي كتابه بشماله غطّاه ولم يظهره للآخرين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾[4]، وذلك لأنّ موازينه ليست راجحة.

---

[1] الأحزاب: ٣٣.

[2] الإسراء: ١٣.

[3] الحاقة: ١٩.

[4] الانشقاق: ١٠.

البعد الأخلاقي لمفهوم اليمين.

اليمين مأخوذ من اليُمن وهو بمعنى البركة[١]، والبركة تعني الكثرة، أي أنّ من تكثر أعمال الخير منه يصبح مباركاً ويكون من أصحاب الميمنة، والتعبير يُدلل على كثرة الخيرات الصادرة منه الملازمة له التي يبرز بها، أي أنّ شخصيته تظهر بواسطة أعمال الخير الصادرة منه عكس أصحاب المشئمة، فهم الذين تكثر سيئاتهم، وتقل البركة في أعمالهم ويبرزون كأصحاب شؤم، ولهذا استثنوا لتمكن صفات الخير في ذواتهم وهم يتساءلون عن غيرهم لأنهم يريدون الخير للجميع، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾، وأيضاً لأنهم فاكهون في الجنة وعلى سرر متقابلون لأنّ الله تعالى يغدق عليهم من خيراته وهباته وعطاياه بلا حد.

الصلة بين أهل النعيم وأهل الجحيم.

هناك صلة بين من هو في غاية النعيم ومن هو في سوء الجحيم، وهنا نحتاج إلى مقدمة كي يتم التعرف على الارتباط بين أهل الجنة وأهل النار.

لقد ذكرنا آنفاً أنّ معنى سقر هو الذوبان، أي أنها تقوم بإنهاء وإذابة من أُدخل فيها، فـ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾[٢]، والذي لا يُبقى ولا يُذر يعيده الله تعالى مرة أخرى ليتعذب بنفس الحالة التي جرت عليه، ورغم ذلك فهناك صلة بين أهل النار وأهل الجنة، هي أنّ أهل الجنة وأهل النار يتحاورون، وينادي كل منهما الآخر، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[٣]، كذلك ينادي أصحاب النار أهل الجنة، قال تعالى:

---

[١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٦ ص١٥٨.

[٢] المدثر: ٢٨

[٣] الأعراف: ٤٤

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ﴾[1]، كما أنّ هناك صلة بين من يعيش متنعماً وبين من يعيش الفقر المدقع في الدنيا، فأيضاً هناك صلة في عالم الآخرة، فعندما يصدر من شخص فعل يؤدي به إلى نهاية سيئة يلومه ويعاتبه الآخرون، ويتساءلون كيف صدر ذلك العمل السيئ منه؟ ويخاطبونه لقد أضعت مستقبلك، ولم تحقق النجاح!!

وحينئذ يبرر ما يصدر منه ويبدي الأسباب والدوافع لما قام به، وقد يُرجع ذلك إلى صديق أغواه فسار به إلى طريق منحرف، مع أنّ الصديق ليس له قدرة على جعل الإنسان مجبوراً لا يملك قدرة على المخالفة، إذْ يمكنه تحكيم العقل واستشارة أصحاب النهى، وحينئذ سيتضح له عدم صواب ما صدر من صديقه.

[1] الأعراف: ٥٠.

حقيقة المجرمين.

ما ذكرناه من تساؤل في الدنيا يأتي في الآخرة، فأهل الجنة وأصحاب اليمين في تلك الأجواء المفعمة بالسعادة والفرحة بدخولهم الجنة في حالة تساؤل وتعجب ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[1]، يتساءلون عن المجرمين، وكيف آلى حالهم إلى سقر؟

إنّ بحث المجرمين في القرآن الكريم يستحق التأمل، من هنا نتساءل من هو المجرم؟

الجرم في اللغة هو التعدي ويُراد منه الجرم[2]، لكن القرآن يبينه بمعنى دقيق حيث إنه ليس من يقترف الذنب فحسب، بل من يتلبس بالجرم فيصبح الجرم والجريمة جزءًا من شخصيته، أي أنّ هناك عاصٍ لكنه ليس بمجرم، قد يرتكب بعض الذنوب الصغيرة أو التي ليس لها تلك الآثار الفردية والاجتماعية المؤثرة، وهناك من يقترف معاصٍ كبيرة تهدد المجتمع، كالقاتل فيُطلق عليه مجرم، لأنه يسلب المجتمع الأمن والطمأنينة، كذلك حال من يدخلهم الله تعالى سقر، فهم أصبحت الجريمة والسوء والابتعاد عن الحق تعالى جزءاً أصلياً من ذواتهم.

خصال أهل سقر.

ولما يتساءل أهل الخير عن المجرمين للعلاقات التي تربطهم بهم في الدنيا، ولأنهم يرون ما حلّ بأصحاب الشمال من نهاية مأساوية فيتساءلون عن المصير الأسود ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾[3]، أي ما الذي جعلكم تدخلون العذاب الأليم وتكونون من أصحاب سقر؟

---

[1] المدثر: ٤٠،٤١.

[2] لسان العرب لابن منظور ج١٢ ص٩١.

[3] المدثر: ٤٢.

فيأتي جواب المجرمين ليعددوا الصفات التي أودت بهم إلى الحالة السيئة، وعندما ينقل القرآن الكريم ذلك الحوار ينقله لنتعظ ونستفيد كي نتجنب تلك الصفات المهلكة التي أودت بهم إلى سقر، وهي:

ترك الصلاة.

أول سمة يذكرها المجرمون ترك الصلاة، ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾، الصلاة من الواجبات الضرورية التي اهتم بها الإسلام، لما لها من دور كبير في حياة الإنسان، ولهذا شبهت الروايات الصلاة بالنهر الجاري الذي ينقي جسد الإنسان من الدرن، قال الإمام الصادق ع: {لو كان على باب أحدكم نهر فاغتسل منه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى على جسده من الدرن شيء؟ إنما مثل الصلاة مثل النهر الذي ينقي، كلما صلى صلاة كان كفارة لذنوبه إلا ذنب أخرجه من الإيمان مقيم عليه}[1]، أي أنّ ترك الصلاة مقدمة لأعمال مهلكة يقترفها المرء.

حقيقة الصلاة.

كثير من الناس يؤدي الصلاة، وكثير منهم لايؤديها، من هنا علينا أن نعرف معناها الحقيقي كي لا نتوهم أنها القيام والقعود والركوع والسجود فحسب، بل إنّ معناها هو الصلة بين العبد وربه، الصلة الوثيقة التي لا انفصال لها، ولهذا عنت النصوص الواردة تلك الحقيقة، وبينت عظمة تلك الصلة، وأنّ الأعمال كلها متوقفة على قبولها، عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: {إنّ أول ما يحاسب به العبد الصلاة فإن قُبِلَت قُبِلَ ما سواها، وإن الصلاة إذا ارتفعت في وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة تقول: حفظتني حفظك

[1] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص ١٦٢٩.

الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعتني ضيعك الله}[١].

الآثار المعنوية للصلاة.

إنّ من الآثار المعنوية للصلاة ردع الإنسان عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢]، وتحقق العروج المعنوي للروح، قال رسول الله (ص): {الصلاة معراج المؤمن}[٣]، أي أنها يتحقق بها لروحه العروج إلى الملكوت الأعلى، غير أنّ بعض المصلين يتذكر كل شيء في صلاته، فينشغل ذهنه وفكره عنها، ولا يكون مع الله تعالى، ولهذا لا صلة بينه وبين الله تعالى.

والصلاة الحقيقية هي التي يخشع فيها العبد ويخضع لله تعالى، ويظهر التذلل والفقر للغني المطلق، لتكون صلاته صلة وثيقة بينه وبين الباري تعالى، من هنا على المصلي أن يعلم أنّ الذنوب والمعاصي تقطع الصلة فتكون الصلاة مجرد حركات وألفاظ يؤديها دون أن يعي معناها، هناك تعبير لأحد الشعراء المبدعين بيّن فيه أنّ يزيد وغيره ممن هم على شاكلته يتشهدون الشهادتين في الظاهر غير أنهم يقضون على حقائق التوحيد ومعاني الرسالة في الواقع، قال يرحمه الله:

لئِن جَرتْ لفظةُ التوحيد في فمهِ فسيفُهُ بسِوى التوحيدِ ما فَتَك

أي أنّه يتلفظ بـ"لا إله إلاّ الله" لكنه يحارب الله ورسوله، بإساءته إلى أبناء النبي (ص) وعترته، فيقتلهم ويفعل المنكرات بهم، فلم يعي حقيقة الصلاة من أنها الارتباط الوثيق الذي

---

[١] تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج٢ ص ٢٣٩.

[٢] العنكبوت: ٤٥.

[٣] مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي الشاهرودي ج ٦ ص ٣٤٣.

عبّر عنه الحق تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾، أي أنّ ذكر الله تعالى الذي يحصل عليه المصلي هو أكبر وأعظم، لأنّه عرج بروحه في صلاته، ووعى معنى الكبرياء الإلهي بقول: "الله أكبر"، وفقه معنى الصلاة فمنعته عن اقتراف الذنوب والمعاصي، قال الإمام الصادق ع: {من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته منه قبلت منه}[١]، أبان الإمام (ع) الميزان الذي ميّز الصلاة المقبولة عن غيرها، والحديث يحفز المؤمن والمؤمنة بالاهتمام بالصلاة حيث تكون مقبولة على الدوام لتنهى عن المعاصي والذنوب.

إذن تتجلى حقيقة الصلاة بمقدار ما تحدثه إيجاباً على سلوك الإنسان وترتقي به نحو الكمال، أما من لم تحدِث له صلاته صلة بينه وبين الله تعالى، ولم يرتبط بالحق تعالى، فإنه لم يصلِ حقيقتها، إذ أنّ الصلاة ليست حركات، والصيام كذلك، ليس تركاً للطعام والشراب، قال أمير المؤمنين : {كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر العناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم}[٢]، وبذلك نعي المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

الثانية: ترك إطعام المسكين.

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

---

[١] الصلاة في الكتاب والسنة للشيخ الري شهري ص ١٤٧.

[٢] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص١٦٨٦.

السمة الثانية ترك إطعام المسكين، أي أنّ أصحاب سقر لا يتفاعلون مع الفقراء والمعوزين وأهل المسألة والاحتياج، مع أن لديهم المكنة والقدرة لكنهم يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فضله ولا يتجاوبون مع أصحاب الفقر والحاجة.

إن الإنفاق سمة أساسية هامة للمؤمن أكدتها آي القرآن الكريم كثقافة إسلامية، وأنّ على المسلم البذل والإنفاق بإطعام الفقراء المحتاجين والإنفاق على قسمين:

الأول: الإنفاق الواجب.

وهو الذي يلزمنا إخراجه، سواءً كان زكاة للغلات الأربع (الحنطة والشعير والتمر والزبيب)؛ أو للنقدين (الذهب والفضة)؛ أو الأنعام الثلاثة (الإبل والبقر والغنم)؛ أو زكاة الفطرة؛ أو الخمس؛ أو غير ذلك من الكفارات الواجبة، فهذه الأنواع يجب إخراجها بشروط معينة ذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية.

الثاني: الإنفاق المستحب.

كالصدقات للتوسعة على الفقراء والمعوزين؛ أو دعم المشاريع الخيرية؛ أو التبرعات للمساجد والحسينيات وغير ذلك من الإنفاق المستحب.

يرتقي الإنفاق بالإنسان إلى الله تعالى، وهو طريق سريع للوصول إلى الكمال، وله آثار كثيرة، من جملتها زيادة المال وكثرته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]، أي أنه يزيده ويضاعفه، وهناك أثار كثيرة تترتب على الإنفاق، من أعظمها توثيق الصلة بين العبد وبين الحق تعالى.

الآثار الاجتماعية للإنفاق.

[1] سبأ: ٣٩.

وقد أشار العلماء إلى بعض آثار الإنفاق، حتى وإن كان على نحو الكرم، إذ أنه يحقق الأمن الاجتماعي ويقضي على الجريمة، لأنّ كثيرًا من الإشكاليات التي تخل بالأمن ناتجة من الفقر، قال النبي ص :{ كاد الفقر أن يكون كفراً}[١]، وإذا تم تلبية حاجة الإنسان المادية ورُفع عنه العوز، ففي الأعم الأغلب يتاح له أن يشتغل بالأمور التي يرتقي بها في المجالين المادي والمعنوي، بينما إذا لم تتم تلبية حاجاته المادية وبقي تحت وطأة العوز والحاجة الشديدة فإنه قد يصبح أرضًا خصبةً للجريمة، ولهذا أشارت الروايات إلى خطورة الفقر، قال الإمام علي ع: { لو تمثل لي الفقر رجلاً لقتلته }[٢]، تعبير كنائي عن لزوم الحرب والنضال في إزالة الفقر من الواقع الاجتماعي.

إن الله تعالى يكرّم المنفقين الباذلين الذين لا يكنزون الأموال، أو الذين لديهم هدف من كسب المال هو الإسهام في مشاريع الخير، فتراه ينمي الأموال من أجل الإسهام في مجالات الخير، وعليه، فإن جمع المال لكسب فضيلة الإنفاق في سبيل الله والإسهام في مشاريع الخير أمرٌ محمود، أما إذا جُمع للتفاخر أو المباهاة أو غير ذلك من الأمور التي لا تعود على الإنسان بمحمدة في دنياه أو أخراه، فإنه سيستعبد جامعه، فيكون جمعه مذموماً، وكثير من الناس يجمع المال فيؤثر عليه، ويصبح عبداً له بدلًا عن عبوديته لله تعالى، فيسيطر عليه حب المال، وقد يتحول إلى مجرم لا يرقّ ولا ينفق، بل يسيطر عليه جشع المادة، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾، ولا يراد بالإطعام إعطاء الطعام فحسب، بل هو تعبير يشمل سد كل موارد الحاجة التي يحتاج إليها المسكين، ولذلك كان أكل مال اليتيم ليس بمعنى تناوله بالفم، بل صرفه دون وجه حق، والإطعام والأكل تعبيران يراد بهما الإسهام، وهو هنا يشمل كل ما فيه سد لحاجة ببذل المال ورفع العوز والفقر، أو بفعل يحقق خيراً للمحتاج، قال ص:{الكلمة الطيبة صدقة }[٣]، لأنّها تؤثر في رفع معنويات سامعها،

---

[١] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٣ ص٢٤٣٨.
[٢] روائع نهج البلاغة لجورج جرداق ص ٨٤.
[٣] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص١٥٩٧.

وتصبح بلسماً يخفف من آلامه ويواسيه، وهذا الإسهام له من الآثار ما لا يعلم به إلاّ الله تعالى، منها نماء المال وبركته، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[1]. إذن على المؤمن أن يحاول جاداً إنفاق المال الذي آتاه الله تعالى إياه في كل أعمال الخير، ولايوقف نفسه على عمل دون آخر، لأنه لا يدري أي الأعمال يقبل منه، وأي الخيرات للإسهام يرفع درجته، إن بعض الناس يسهم في عملين أو ثلاثة ثم يتوقف عن الإنفاق، وهو خاطئ، إذ أنّ عليه أن يستمر في الإسهام في مجالات الخير، حتى يطمئن بتحقق الرضا والفوز بما يرضي الله تعالى ويُقربه للمقام المحمود.

السمة الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥﴾، هذه هي السمة الثالثة، وفيها درس أخلاقي من أعظم الدروس التي ينبغي أن يتوجه إليها المؤمن.

معنى الخوض مع الخائضين:

نستخدم هذا التعبير كثيراً في بلدنا – الأحساء – فنقول: "خضت في الماء"، ونستخدمه أيضًا في معنى دخلت في الشيء فأثر عليّ، فالخوض في الماء يؤثر على الخائض فيه، فيبلل ثيابه، وهذا المعنى مقارب للاستعمال في القرآن الكريم، إذ أن المراد به الاشتغال بالباطل والتأثر به، وسنحاول أن نوضح المعنى ببعض الأمثلة، قد يتحدث بعض مع جماعة بالمزح في بعض الأمور، ثم يدخلون بالسخرية والاستهزاء بالآخرين واستصغار شأنهم، ثم بالكذب والغيبة والنميمة عليهم، أو بأمر نهى الحق تعالى عنه، ثم يدخل بعض معهم ويشاركهم أو يوافقهم، إلى أن يكون كأحدهم، فيكون قد اشتغل بالباطل وتأثر به، بينما هناك فئة من الناس عندما يتحدث جماعة بالباطل لا تسمح لنفسها أن تخوض فيه معهم،

[1] البقرة: ٢٦١.

لأن ارتباطها بالله وتذكره يمنعها من ذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[1]، أي أن المؤمن حين يتذكر يدع الباطل لبصيرته، ولعلمه بأن الخوض فيه يأخذه شيئاً فشيئاً إلى متاهات مظلمة، لأنّ بعض الأمور تجره إلى شيء آخر، فالخير يجر إلى خير، والسوء والباطل يجر إلى سوء وباطل، وهنا يأتي دور تربية النفس على الإيمان بالآخرة، لما له من دور كبير في تحويل السوء والباطل إلى خير، ويتحقق ذلك بالاهتمام بها، وقد سأل سائل عن كيفية الاهتمام بأمور الآخرة؟ فأجبته: أن الإنسان يهتم بأمور الدنيا، ويحاول أن يطور نفسه ويرتقي بها، فإذا اشتغل في شركة فإنه سوف يطور مهاراته كي يحصل على المكان الذي يليق بمستوى مهاراته والدورات التي تلقاها، هذا النحو من الاهتمام بالدنيا إذا اهتم على نسقه بأمور الآخرة فسوف يصل إلى مبتغاه، وقد ألفت انتباهنا القرآن الكريم إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾[2]، ويراد بالعمل معناه الواسع الذي له أهمية كبيرة في البناء الأخلاقي للإنسان، وأثره في عالم الآخرة الفوز والسعادة الأبدية.

الاشتغال بالباطل ونسيان الإيمان.

يؤثر الاشتغال بالباطل في شخصية الإنسان، فينسيه إيمانه وقيمه ومبادئه والمُثُل التي يؤمن بها، فإذا كان يرى أن الاستهزاء بالمؤمنين أمراً عادياً مقبولاً، فإنه سينسلخ عن إيمانه، وقد يكون ذلك بواسطة شخص يسول له فيوقعه في المعصية، كما حدث ذلك في عهد أمير المؤمنين ع، فقد ورد أن النجاشي خرج في أول يوم من رمضان، فمر بأبي سمال الأسدي وهو قاعد بفناء داره، فقال له: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة، قال: هل لك في رؤوس واليات، قد وضعت في التنور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وقد تهرأت؟ قال: ويحك في أول يوم من رمضان! قال: دعنا مما لا نعرف، قال: ثم مه؟ قال: ثم أسقيك من شراب

---

[1] الأعراف: ٢٠١.

[2] التوبة: ١٠٥.

كالورس، يطيب في النفس، يجري في العروق، ويزيد في الطروق، يهضم الطعام، ويسهل للفدم (العي الثقيل) الكلام، فنزل فتغديا، ثم أتاه بنبيذ فشرباه، فلما كان من آخر النهار علت أصواتهما، ولهما جار يتشيع من أصحاب علي ع، فأتى علياً ع فأخبره بقصتهما، فأرسل إليهما قوماً فأحاطوا بالدار، فأما أبو سمال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت، وأما النجاشي فأُتي به علياً ع، فلما أصبح أقامه في سراويل فضربه ثمانين، ثم زاده عشرين سوطاً، فقال: يا أمير المؤمنين، [أما الحد فقد عرفته فما هذه العلاوة التي لا نعرف؟ قال: {لجرأتك على ربك وافطارك في شهر رمضان}[1]، وفي هذه الرواية نجد التأثر بالتسويل والتزيين من قبل الآخرين، خصوصًا الأصدقاء، إلى الخوض والاشتغال بالباطل والتأثر به، حتى يتهيأ إلى دخول سقر، لنسيانه لله تعالى، فيؤدي به أن ينسى نفسه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[2]، إن من نسي نفسه سوف ينسى كل شيء، وحينئذٍ سيستسهل اقتراف الذنوب والمعاصي كالكذب، وقد يوسوس له الشيطان بالتوبة بعد ذلك، وهذا خطر عليه، لهذا لابد للمؤمن من ترك الباطل والاشتغال بذكر الله تعالى بمجرد أن يخوض مع خائضين، ممن ليس لديهم ورع ولا تقوى ولا إيمان يحجزهم عن المعاصي، فيبتعدون عن قيم الحق ويُؤْثِرون الباطل، فيُوقِعون الناس في شراكهم ويتدرجون بهم حتى ينسلخ إيمانهم، فيكونون من أصحاب النار، وقد أشار القرآن الكريم في موارد متعددة إلى هذه المسألة الأخلاقية، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[3].

---

[1] مستدرك الوسائل للميرزا النوري ج ١٨ ص ١١٣.

[2] الحشر: ١٩.

[3] التوبة: ٦٥.

كبح جماح النفس.

إن من الضروري أن يكون للمؤمن كوابح كفرامل السيارة، إذا جلس مع جماعة يتحدثون في شيء، فلا يدعهم تسرع بهم الخطى إلى الباطل، بل يحاول بتفكيره أن يزن حديثهم بموازين شرعية، ويتساءل هل هو سائغ أم لا؟ فإن كان سائغاً دخل معهم، وإن رآه غير سائغ ابتعد عنهم، خصوصًا في موارد الاستهزاء بالصالحين المؤمنين أو بآيات القرآن أو بأئمة أهل البيت ع أو بالقيم والمبادئ، إذ قد يبتعد شخص عن الربا، ولايريد جمع المال من الحرام، رغم أنه يستطيع أن يقترفه، كما عبر الإمام أمير المؤمنين ع، في شخص يعرف وجه الحيلة، لكنه لايحتال، لعلمه بالعاقبة أنها سقر التي لا تبقي ولا تذر، وذلك كابح، ولهذا فإن وجود الكوابح مسألة أساسية في عملية التكامل الأخلاقي والنفسي، ومن يرد الله تعالى والدار الآخرة لابد أن يلتزم بالواجبات كالصلاة والإنفاق في سبيل الله تعالى وأمور الخير الأخرى، أما من ليس لديه كوابح تضبط حركته، فإنه لن يسيطر على نفسه، وسيُغلب ويُسيطر عليه، ويسقط في الهاوية، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[1]، أي أن للكوابح خاصية منع الإنسان من الوقوع فيما يضره ويؤدي به إلى الهلكة، والصيام – خصوصاً في شهر رمضان – من أكبر الكوابح لتصرفات الإنسان وسلوكه، لأن المؤمن تتوافر لديه في نهار الصيام أطيب أنواع المأكل والمشرب والملذات الأخرى، لكنه يتذكر الآخرة، فيتركها لله تعالى، ويكبح جماح نفسه ويصبر.

نتيجة موقظة.

إذن من أراد أن ينجو من سقر لا بد أن يضع لنفسه كوابح، وإذا رأى من يتحدث في باطل أو يدخل فيه أبعد نفسه عنه وربطها برباط وثيق، لئلا يدخل في باطل لا يستطيع أن

[1] التوبة: ١٠٩.

يخرج منه، وأهم شيء لجعل الإنسان يمتلك الكوابح تذكر الآخرة، أي أن يكون على ذكر للقيامة وعذاب الله تعالى، لأنّ ذكر الموت والآخرة له أبلغ الأثر في تكامل الإنسان معنوياً، وقد سُئل النبي ص فقيل له: يا رسول الله هل هناك من يحشر مع الشهداء؟ فقال: {نعم، من يذكر الموت بين اليوم والليلة عشرين مرة}[١]. لأنّ عالم الآخرة والموت له التأثير الكبير على أعمال الإنسان وصلاحه، فإنه إذا سولت له نفسه ارتكاب الباطل وتذكر الآخرة ارتدع، لكونه يعرف أنّ نهاية اللذة بالباطل قليل، ثم تبقى آثاره المترتبة على اقترافه، وفي كثير من الأحايين يندم الإنسان على ذلك، فمن تصرف في أموال الآخرين من دون رضاهم أو اختلس أو سرق مالاً منهم سيعلم أن المال لن يبقى، وسينتظره العذاب الأخروي الذي لا نفاد له، بخلاف ما إذا كان على ذكر دائم للموت، فكلما سوّلت له نفسه وزين له الشيطان سيتذكر الآخرة، قال أمير المؤمنين ع: { لا وجع أوجع للقلوب من الذنوب، ولا خوف أشد من الموت، وكفى بما سلف تفكراً، وكفى بالموت واعظاً}[٢]، قوله ع: (كفى بالموت واعظاً) أي أنه لا يحتاج المرء إلى أكثر من الموت كي يتعظ ويدع السوء والباطل، وقد ركّز القرآن على هذا الطريق، فإنّ آيات القرآن اهتمت بعالم الآخرة والمعاد أعظم من اهتمامها بالأمور الأخرى، بأنها المسألة الأساسية حتى ورد في القرآن أكثر من ألف وسبعمائة آية، بينما بقية الأمور فيها آيات معدودة، ويعود السبب إلى أنّ حياة الإنسان الحقيقية ترتبط بعالم الآخرة، ولهذا فإنه بمجرد أن يفكر فيه سرعان ما يلتفت ويتنبه إلى رشده وهدايته.

السمة الرابعة: التكذيب بيوم الدين.

قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ من ينسى الآخرة سوف يكذب بيوم الدين و التكذيب عامل أساس للاصطلاء بسقر، ذلك أن الإنسان يعلم أنه سيموت، وهذا أمر قطعي بالنسبة له، فإذا كان لديه رشد فإنه سيتذكر الموت، و سيجره ذلك شيئاً فشيئاً إلى الإيقان بالحياة الأخروية، و حينئذ ستتكامل الملكات النفسانية الخيرة في ذاته مع تكامل

[١] مستدرك الوسائل للميرزا النوري ج٢ ص ١٠٤.

[٢] الكافي للشيخ الكليني ج٢ ص٢٧٥ .

إيمانه، و عكسه من يكذب بيوم الدين، فإنه سيتسافل، و سيجره إلى المهالك وإلى جهنم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[1]، إذن من أراد أن ينجي نفسه من العذاب المهول وعذاب سقر فإن عليه أن يعمل ما يقربه إلى الله و إلى الرشد، وسوف يحصل على الرقي والتكامل.

نتيجة السمات الأربع.

السمات الأربع السابقة سبب لدخول المجرمين إلى سقر، ترك الصلاة وعدم إطعام المساكين والخوض مع الخائضين والتكذيب بيوم الدين، وقد كانت ملازمة لهم حتى أتاهم الموت، ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾، فُسِّر اليقين بتفسيرين:

الأول: الموت، ويشهد له، قول الإمام الصادق ع: {ما خلق الله عز وجل يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت}[2]، ومعناه أنّ كل الناس يوقنون أنهم سيموتون، ويجزمون بذلك لكنهم يعملون مع الموت عمل الشاك، ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾ إذن يراد باليقين الموت.

الثاني: يراد به الحقائق المتيقنة التي تتجلى في عالم الآخرة، يُصدِّق بها الإنسان ويصبح موقناً رغم أنه لم يكن على يقين بها في الحياة الدنيا.

ومن لم يصدق بها سوف يبقى في حالة ارتياب وشك خصوصاً إذا لم يبدأ بتكميل نفسه شيئاً فشيئاً بالأعمال الصالحة وتطهيرها من دنس الذنوب، فإنه إذا جاء الموت واطلع على عالم الآخرة تجسدت له الحقائق وأصبحت واقعية، وحينئذ سيقول: إني كنت شاكاً، والآن على يقين، غير أنّ ذلك اليقين لم يفده شيئًا، وقد أشار الحق إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[3].

معنى الشفاعة.

---

[1] النساء: ١٤٥.

[2] من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ج١ ص ١٩٤.

[3] ق: ٢٢.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

معنى الشفاعة في اللغة نفس المعنى في العقيدة، أي أنّ الاستخدام العقدي هو نفس الاستخدام اللغوي، فهي مأخوذة من الشفع وهو يقابل الوتر، ﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾[١]، الوتر هو كل شيء كان فرداً[٢]، أي أنّ المفرد وتر، والشفع هو ما كان من العدد أزواجاً[٣]، أي المزدوج أو الزوج.

ومعنى الشفاعة هي كون المرء لديه أعمال خير، غير أنّ الأعمال لا تؤهله للحصول على الرضوان الإلهي أو الجنة، وحينئذ يأتي دور الشفيع، فيشفع له الحق تعالى أو الأنبياء والرسل، أو الملائكة وأعظم شفاعة الأنبياء هي شفاعة نبينا محمد ص، قال الإمام الصادق ع: {ما أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يحتاج إلى شفاعة محمد ص يوم القيامة}[٤].

وأيضًا هناك شفاعة للأولياء والصالحين وبعض المؤمنين العاديين، يشفعون لبعضهم، وقد وردت روايات في شفاعة المؤمن، عن رسول الله ص: {في المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً}[٥].

الشفاعة بين الخالق المخلوق.

الشفاعة من المسائل الهامة التي تعرض لها القرآن باستفاضة، إذْ أنّ بعض الآيات القرآنية تبين أنّها لله تعالى، بل أنّ كل الشفاعة له تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[٦]، وهناك بعض آي القرآن الكريم تبين أنّ هناك شفاعة لبعض الخلق بعد رضا الله تعالى عن ذلك، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ

---

[١] الفجر: ٣.

[٢] كتاب العين للخليل الفراهيدي ج٨ ص١٣٢.

[٣] كتاب العين للخليل الفراهيدي ج١ ص٢٦٠.

[٤] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص ١٤٧٤.

[٥] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٢ ص١٤٧٨.

[٦] الزمر: ٤٤.

خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [1]، وبعض الآيات الأخرى تبين شرائط للشفاعة فلا تكون لأي أحد، وعليه إذا تحققت الشرائط تكون الشفاعة نافعة، قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [2]، ويرجع السبب في عدم انتفاعهم بالشفاعة لأنّهم لم يكونوا من المصلين ولم يطعموا المسكين أي لم يؤدوا الزكاة والواجبات المالية وكانوا يخوضون في الباطل، ويكذبون بيوم القيامة، وهذه أمور أربعة إذا اتصف بها امرئ لن تفيد معها الشفاعة، روى أبو بصير عن أبي الحسن الأول ع (الإمام الكاظم) قال: {إنه لما حضر أبي ع الوفاة قال لي: يا بني إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة}[3]، الشفاعة موجودة لكنها بشروط، منها: أن لا ينكر الإنسان الأصول العقدية الثابتة ولا يترك الصلاة أو يستخف بها، وأن يكون مؤدياً للحقوق المالية، وأن لا يدخل في الباطل كي لا يتلوث به، أما إذا كان متصفاً بهذه الأوصاف ثم جاء يوم القيامة فلن تنفعه الشفاعة لأنّها لله تعالى، ولا يشفع غيره من الأنبياء والرسل والملائكة وغيرهم إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [5]، والآية بينت كيف يحصل الرضا، بأن لا يكون تاركاً للصلاة، ولا منكراً للمعاد، ولا يخوض في الباطل، ولا يمنع الحقوق والواجبات المالية، وإذا لم يكن كذلك فسوف تكون الشفاعة مفيدة له ونافعة، غير أنّ بعض الناس قد يسمع آيات الله تعالى تتلى عليه آناء الليل والنهار لكنه لا يتأثر بها، بل تزيده بُعداً عن الحق تعالى، ورسوخاً في الباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

---

[1] الأنبياء: ٢٨.

[2] المدثر: ٤٨.

[3] الكافي للشيخ الكليني ج٣ ص ٢٧٠.

[4] طه: ١٠٩ .

[5] الأنبياء: ٢٨.

﴾[1]، وعلى العكس من ذلك، فإنّ المؤمن يؤثر فيه القرآن ويزيده إيمانًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[2].

[1] الإسراء: ٤١.

[2] الأنفال: ٢.

الشفاعة وترك الواجبات.

إذن فمن تتلى عليه الآيات ويزداد بعداً عن الحق تعالى لن ينتفع من الشفاعة كما هو واضح، لذا، فإنّ من الأغلاط عند بعض الناس تصور أنّ الشفاعة ستدركه حتى لو ترك الواجبات كالصلاة والصوم وغير ذلك، رغم أنّ الشفاعة هي لمن حقق شرائطها، وأما من خاض في الباطل ولم يؤدِ الواجبات والحقوق المالية فلن تنفعه الشفاعة، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

سبب ترك الشفاعة

يرجع عدم الاستفادة من الشفاعة إلى أنّ الأكثرية من العصاة جعلوا أصابعهم في آذانهم، ولم يستمعوا إلى الحق، فأصموا وأصاب العمى أبصارهم، وتلوثت فطرتهم، ولهذا لم يتأثروا بالاستماع إلى الحق، فمن تتلى عليه آيات القرآن وروايات المواعظ ولا ينزجر ولا يتأثر بها، فإنّ لديه خللًا في إيمانه، قال تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2]، ويراد بالتذكرة هنا آيات القرآن الكريم، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾[3]، لأنّ آيات القرآن تذكر الإنسان بشرط أن تكون له أُذن تسمع وتتقبل مع رحابة صدر، أما من كانت الوسائل متاحة له ولم يتذكر ولم يستفد منها بل ازداد بعداً عن الحق تعالى فهو في خطر كبير، ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾، أي أنهم أعرضوا ولم يقبلوا الحق، هناك كثير من الناس أعرض عن القرآن الكريم وعن القيم والمبادئ، بل لم يعرض فحسب وإنما فرَّ وابتعد مما يربطه بالله تعالى، وقد عبّر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين لا يتذكرون إذا ذكّروا بل يُعرضون هاربين، بأنّ هروبهم ناشئ من عدم العقل، ومن التوغل في الحيوانية في ذاتهم وصوّر الحق تعالى هذا بتصوير بليغ ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

[1] الأنبياء: ٢٨.

[2] المدثر: ٤٩.

المستفيد من التذكرة.

وعلى عكس المعرضين عن التذكرة، فإن هناك من يستمع لها، قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [1]، أي أنّ هناك من يعي ويستفيد من التذكرة، ومن هنا أكد الإسلام على مطالب في غاية الأهمية كالبحث عن الحكمة والاستفادة منها، قال الإمام الصادق ع: {الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجد أحدكم ضالته فليأخذها}[2]، لأنّ الاستماع لها يؤدي إلى الإيمان حتى إذا كان مصدرها شخصاً غير ملتزم، قال الإمام أمير المؤمنين ع: {خذ الحكمة أنى كانت، فإنّ الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجلج في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن}[3]، وينبغي أن نلتفت إلى هذه التوجيه ونتعرف على خصوصيات كثيرة للاستفادة من الآخرين والنظر إلى ما يقولون بغض النظر عن القائل، قال الإمام أمير المؤمنين ع: {خذ الحكمة ممن أتاك بها، وانظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال}[4].

تشبيه المعرضين عن التذكرة.

شبّه القرآن الكريم المعرضين عن التذكرة بالحمر الوحشية عندما تهجم عليها الأسود، ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾، لأنها تنفر خائفة، وخوفها يتطلب سرعة فائقة للهروب، كذلك المعرضون عن التذكرة الذين لا يريدون للتذكرة أن تؤثر في نفوسهم وتقضي على باطلهم، يعرضون عن الاستماع والإنصات إلى الحق، ويغلقون منافذ السمع حتى لا يصل الحق إلى عقولهم وأفكارهم فيقضي على باطلهم، إذن النفرة هي الهروب السريع من الشيء، وكذلك حال من يُعرِض عن آيات الحق تعالى فينفر منها، لأنه كلما استمع إليها تغلغلت في وجوده وأثرت عليه وأزهقت باطله، وهو يخاف من ذلك فيفر منها.

---

[1] الحاقة: ١٢.

[2] الكافي للشيخ الكليني ج٨ ص١٦٧

[3] نهج البلاغة للإمام علي ج٤ص ١٨.

[4] ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٣ ص ٢٠٨٣.

أبعاد تشبيه المعرضين بالحمر.

إذن شبهت الآيتان ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ المعرضين بالحمير الوحشية الموجودة في الغابات التي تفر من الأسد القسورة، الأسد في حال قوته يسمى قسورة، والتعبير يشير إلى أنّ الأسد قاسر لفريسته بشدة كأنه سيقضي عليها قضاءً مبرماً، رغم فرارها منه، فإنّ قوته واقتداره وشدة انطلاقه في اللحوق بها يمكنه منها، كذلك الإنسان إذا أراد أن يفر من التذكرة، فإنّ العوامل القاسرة تكون له كالأسد بالنسبة لفريسته، وهي عوامل متعددة كالأمراض والحوادث والمنايا، فإنّها ترد الإنسان دون توقيت يعرفه فتقسره بقوتها، وعليه فإنّ التعبير غاية في اللطف.

احتجاجات واهية.

قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾.

تبين الآية أنّ فئة من الناس تظن أنّ لنفسها شأناً كالأنبياء والرسل السابقين فكما أنّ الله تعالى أنزل كتباً وصحفاً عليهم فلماذا لا يُنزل عليهم كتاباً كي يؤمنوا ويصلون إلى درجة عالية في عبوديتهم لله تعالى؟! كل واحد منهم يريد أن يُنزل الله عليه قرآناً كما أنزله على المصطفى الحبيب ص.

وتبين الآية أنّ هذه الفئة من الناس تتذرع بذرائع واهية، وقد تحدث القرآن الكريم عن ذلك في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾[1]، كل هذه حجج وذرائع لا قيمة لها، لأنّ الله تعالى أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين حتى يوضح للناس الهداية ويفصح لهم عن الحقائق، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ

[1] الإسراء: ٩٠،٩٢.

عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [١]، وليس كل شخص يريد أن يصبح رسولاً يكون له ذلك؛ لأن النبوة اختيار من الله تعالى على أساس وجود خصوصيات لمن يتأهل لهذا المنصب الإلهي، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٢]، ولهذا توهم بعض أنّ النّبوة للأنبياء اختيار فيها، فقالوا للنبي ص: لماذا أنزل الله تعالى عليك القرآن وعلى إبراهيم ع الصحف وعلى عيسى ع الإنجيل؟ وأنزل الكتب السماوية على بقية الأنبياء؟ ولماذا لا يُنزل علينا هذه الكتب السماوية؟ ولماذا تكون الخصوصية لك وحدك يا محمد ص؟

إنزال الكتب اختيار إلهي.

إن إنزال الكتب السماوية من الله شأن لله لا يتدخل فيه أحد، بل هو اختيار منه تعالى، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ [٣]، والذين يريدون لأنفسهم النبوة لا قابلية لهم بتلقي الوحي من قبل الله تعالى لوجود رجس على قلوبهم وشرك، وليس لديهم قرب منه تعالى كي ينزل عليهم الوحي، وإرادتهم لا قيمة لها، قال تعالى: ﴿ بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ﴿٥٢﴾ ﴾، إنهم يطلبون المحال، وليس محالاً بنظر العقل، بل من ناحية الواقع، أي أنّ كل الناس لا يمكن أن يكونوا رسلاً من قبل الله تعالى، ولا يمكن أن يكونوا أنبياء وتنزل عليهم كتب من قبله تعالى، بل أنّ مقتضى اللطف أن يكون هناك رسول يأتي بالأحكام من قبل الله تعالى والجميع يأتمر وينتهي بأوامره ونواهيه، لأنها أوامر الحق ونواهيه، أما أن يطلب كل شخص إنزال الوحي عليه لتكون له صحف منشرة، فهو محال

---

[١] النساء: ١٦٥.

[٢] الزخرف: ٣٢.

[٣] الأنعام: ١٢٤.

من الناحية العملية، ولا يمكن أن نقول: اتركوا الناس كلهم ليصبحوا حدادين أو نجارين أو غير ذلك، لأن الحياة لن تنتظم حينئذ، إذ أنّها لا تنتظم إلاّ بأن يأخذ كل فرد دوره، ودور النبي ص هو تلقي الوحي الإلهي، وهو دور أساسي وجوهري ولا يمكن أن يكون أولئك الناس الذين يخاطبون الرسول ص بمرتبته ص وأن يتاح لهم تلقي الوحي كما أتيح له ص، وعليه فإن هذه الحجة والذريعة لا قيمة لها، وكذلك لا قيمة لقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1]، أو لقول بعض بني إسرائيل لموسى ع: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2]، لأنه لا يمكن رؤية الله تعالى عياناً كرؤية أحدنا للآخر.

إنّ هذه مجرد ذرائع، لأنهم تصوروا أنّ الله تعالى جسم من الأجسام يمكن رؤيته، وعليه فإنه لن يتحقق كل ما يطلبه الإنسان من أمور ترتبط بإثبات العقيدة، نعم؛ قد يستجيب الله تعالى ويحقق بعض المعاجز بعد إقامة الأدلة العقلية وغيرها على صدق الأنبياء، كي يتضح أنّ من يطلب ذلك لا يخضع للدليل ولا يقبل البرهان بل يريد المحاجة واللجاج عناداً، وهي طريقة قد نجدها لدى بعض حيث يقول: لن أُصبح مؤمناً حتى يُحقق الله تعالى لي الأمر الكذائي، رغم أنّ الإيمان لا يرتبط بتحقيق مطلب ما، فلا يمكن أن نشترط على الله شيئاً كي نؤمن لأنّ إيمان الناس وكفرهم لا ينفع الله ولا يضره، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ

---

[1] الإسراء: ٩١، ٩٢،٩٣.

[2]

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾[1]، بل ينفع من آمن ويكون منشأ لسعادته الدنيوية والأخروية.

خصائص من ينزل عليهم الكتب.

ثم تبين الآية التي بعدها أنهم ليسوا مؤهلين لإنزال الرسالة عليهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، أي أنّ الله تعالى ردعهم عن ما يريدونه من إنزال الكتب السماوية على كل واحد منهم، إذْ أنّ الرسالة مؤيدة من لدن الله تعالى بالدلائل والبينات والحجج القاطعة التي تدفع الشك والريب لدى كل شخص، والحجة تامة قائمة على الرسول وغيره على حد سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعوين صحفاً منشرة، ومن الواضح أن الرسالة تتطلب مواصفات خاصة كطهارة الذات وصلاح النفس وغيرها من الصفات الكمالية التي لها دخل في حقانية الرسالة ونجاحها.

وتبين الآية المائز الأساس والجوهري لمن يستفيد من التذكرة، ويتجه الاتجاه الصحيح، ويرتدع عن الغي والهوى، وهو ذلك الشخص الذي يخاف الآخرة وسوء الحساب، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾[2]، إذْ أنّ تذكر المعاد وخوف الآخرة شيء جوهري في قبول الهداية، وإنكار المعاد وعدم الخوف من الآخرة والعقاب الإلهي الذي ينتظر الإنسان يؤدي به أن لا يأتمر ولا ينتهي ولا يرتدع ولا يتقبل القيم والمبادئ السماوية، لأنّ الوازع الديني الناتج عن الإيمان والحساب في عالم الآخرة هو الذي يجعل المتكبر يتواضع، والكافر يؤمن، والفاسق يستقيم، وقد أشرنا – آنفاً – بأنّ كثيراً من الناس عندما يموت، فإنّ بعض أعزائه يغير مساره ويختلف سلوكه، وقد يتأثر سلبياً في بعض مناحي حياته، نتيجة لتصوره الخلود الدائم، حيث أنّ فكرة الخلود تجعله لا يستشعر أنه سوف يموت، وكأن الموت بعيد

---

[1] إبراهيم: ٨

[2] الإنسان: ١٠.

عنه، وإن كان بعض قد يتأثر عندما يموت أحد أقربائه، لكنه تأثر وانتباه لفترة مؤقتة ثم يرجع سيرته الأولى.

والأساس الذي يريد القرآن أن يبينه أن إنكار المعاد وعدم الإيمان منشأه عدم الخوف من الآخرة، ولهذا؛ قال تعالى: "كلا" أي لن يستفيدوا من التذكر أبداً، ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، لأنهم ليس لديهم خوف منها.

الإنسان والخوف من الآخرة.

قد يتساءل بعض متى ينبغي أن يخاف الإنسان من الآخرة؟

لا يخاف الإنسان من الآخرة إلاّ إذا التزم جادة الصواب وطهّر ذاته، ولم يرتكب المعاصي، لأنّ ارتكابها ينسي الآخرة، ويشكل طبقة وحاجزاً على قلبه، يسمى بالرين، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾[1]، إذن فإنّ أول شيء يجعل الإنسان يتذكر الآخرة ويتفاعل معها إيجاباً هو نزاهة وطهارة ذاته بحيث أنه يجاهد أن لا يصدر منه عمل خبيث أو عمل حرام، ويسعى لتزكية نفسه، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾[2]، والآية تبين أمرين هامين:

الأول: أنه لابد من تزكية النفس والابتعاد عن الرجس حتى لا يحدث رين على القلب.

الثاني: أن لا يربط الإنسان نفسه بالأمور المحدودة، ولا يقيدها بها، فلا يعلق قلبه بأمور مادية بحيث لا يمكنه التخلص منها، ونلفت الانتباه هنا، أنه يمكن أن يكون الإنسان فقيراً لكنه متعلق بأمور مادية، بينما قد يكون ثرياً إلاّ أنّ قلبه تعلق بالله تعالى، فأنبياء الله تعالى وأولياؤه كسليمان وذو القرنين وداوود ويوسف ع كانوا ملوكاً وعندهم قدرات كبيرة، وكانت الأموال تحت أيديهم، لكن قلوبهم متعلقة بالله تعالى، وهناك من الفقراء من تعلق

---

[1] المطففين: ١٤.

[2] الأعلى: ١٤،١٥.

قلبه بسيارته أو بزوجته أو بما يملكه، فأصبحت تلك الأمور كعبة آماله، وليس لديه شيء غيرها ليتعلق قلبه به.

إنّ تعلق القلب لابد أن يكون بالله تعالى، كي يمكنه الارتباط بالآخرة، قال الإمام الصادق (ع): {القلب حرمُ الله، فلا تُسكِنْ حرمَ الله غيرَ الله}، يرتبط الحديث بالمؤمن الذي يذكر الله ويرتبط به بحيث يتعلق قلبه به، فيصبح قلبه حرماً لله لا يوجد فيه غيره، إذْ لو استقر في القلب غير الله تعالى صعب عليه تذكر الآخرة والخوف من سوء الحساب لارتباطه بأمور فانية زائلة إلى درجة التعلق.

الأمور التي تذكر بالآخرة.

النتيجة التي نصل إليها أن الأمور التي تذكر بالآخرة هي أربعة:

الأول: ترك المعاصي والذنوب حتى لا يكون هناك رجس ونجاسة ورين على القلب.

الثاني: أن لا يتعلق قلبه بغير الله تعالى.

الثالث: أن يكون لديه علم بانتقاله من هذا العالم وعدم بقائه فيه مهما طال به الزمن واستمر به الأمد، وذلك أنّ العلم بتصرم الأيام جدُّ هام، يسرّع بالإنسان الخطى إلى الانتقال إلى عالم الآخرة، لذا، من المؤسف أن نجد بعضاً رغم كِبر سنه إلا أنّ لديه آمالاً غير محدودة تشده إلى الأرض وكأنه لن ينتقل عن هذا العالم إلى عالم الآخرة.

إنّ علم الإنسان بأنّ كل يوم يتقدم فيه إلى عالم الآخرة، ينقص من عمره له أثره الكبير عليه، فإذا لاحظ الإنسان نفسه مدة عام من رمضان ماضي إلى رمضان الحال سيجد أنه نقص من عمره سنة، وهكذا يتقدم نحو الآخرة بهذا المقدار، فيدرك كم من السنوات سوف يعيش الإنسان؟

إنّ كثيراً من الناس يموت في الستين والخمسين أو الأربعين، والمتبقي من حياة الإنسان بالقياس إلى ما مضى من عمره قصير جداً، خصوصاً في هذه السنوات المتأخرة التي كثُرت فيها الأوبئة والأمراض وغير ذلك، فإنّ مجموع تلك الأمور تُسرع بالإنسان الخُطى إلى عالم الآخرة.

الرابع: ملازمة الصالحين.

من الأهمية بمكان السير مع الصالحين لأنّ العيش مع غيرهم قد ينسي الآخرة، أما العيش معهم فإنه يجعلك تفكر كما يفكرون، وتستذكر الآخرة كما يستذكرون، قال رسول الله ص: { قالت الحواريون لعيسى ع: يا روح الله! من نجالس؟ قال من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله}[1].

فإذا جالس الإنسان "من يذكره بالله برؤيته" من خلال سيمائه ومهابته وخشوعه وسلوكه بذكره لله قبل أن يتكلم، وبنطقه بالعلم والحكمة والأخلاق والفوائد التي تعود على جليسه بخير الدنيا والآخرة، وعلى المؤمن أن يحذر من مجالسة بعض من إذا نطق أو تحدث شدّ غيره إلى الأرض، وأبقاه في عالم المادة، إذن علينا أن نلتفت إلى أهمية تلك الأمور الأربعة التي تذكر الإنسان بالآخرة، خصوصاً إذا همّ بالمعصية، فإنه سرعان ما يؤوب إلى رشده ويرتدع عن غيه، ويرجع إلى صوابه إذا التفت إلى الأمور الأربعة التي ذكرناها، أما إذا لم يلتفت فقد ينسى الآخرة، فلا يخاف منها، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، إنّ الخوف من الآخرة حصنٌ يمنع المؤمن من صدور ما يسخط الله تعالى.

الآخرة تذكر الإنسان.

أشرنا – آنفاً – إلى أنّ سبب تعاسة الإنسان وابتعاده عن الحق هو عدم التزامه وترك سيره في الصراط المستقيم المؤدي به إلى الخوف من الآخرة، والذي يُحدث انقلاباً في شخصية الإنسان ويحول الكافر إلى مؤمن، والفاسق إلى متقٍ، والمتكبر إلى متواضع ويغير سلوك الإنسان بنحو كلي، إذن الآخرة تذكر الإنسان، كما قال الله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ}، فذكر الآخرة نعمة في التذكرة للإنسان، وليس لكل إنسان، بل لمن يريد أن يتذكر ويرتدع.

وسائل تذكر عالم الآخرة.

[1] الكافي للشيخ الكليني ج١ص ٣٩.

فمن أراد أن يتكامل عليه أن يتذكر عالم القيامة والآخرة، أما كيف يتاح للإنسان أن يتذكر القيامة وعالم الآخرة، فقد أبان الله تعالى ذلك بأساليب مختلفة:

منها: البصيرة، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

ومنها: علمه باختياره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[2].

ومنها: الإرادة، قال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾، أي أنّ تذكُر الآخرة وجعلها نُصب العين والتوجه إليها يرجع إلى الإنسان ومشيئته واختياره، فمن أراد أن يتذكر الآخرة وشاء ذلك، فإنّ الله تعالى سيمنحه قدرات ونعم كبيرة، فإذا استفاد منها وصيّرها في الطريق السوي تهيأت له أسباب الصلاح والفلاح، وحقق الرشد والنجاح في حياتيه الدنيوية والأخروية، أما في الدنيا فإنه سيسلك الطريق المستقيم المؤدي به إلى النجاة والذي أبانه الحق تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[3]، وأما في الآخرة فسوف يرتفع إلى الدرجات العلى، ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾[4]، إذن الخير في عالم الآخرة وفي عالم الدنيا غير أنّ ذلك يتوقف على مشيئة الإنسان، ولابد أن يكون لديه إرادة داخلية من خلالها تتهيأ له الأسباب، وإنْ كان في بداية أمره يصعب عليه أن يجعل إرادته ومشيئته تدعوه إلى الخير والرقي منذ البدء، ولهذا نجد في كثير من الأمور أنّ من يريد أن يرتقي في مجال عمل أو حرفة يشعر بصعوبة عليه في ذلك،

---

[1] القيامة: ١٤،١٥.

[2] الإنسان: ٣.

[3] الأنعام: ١٥٣.

[4] النبأ: ٣١ – ٣٤.

لكنه بالتدرج يسهل عليه الأمر شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح ذلك الأمر الصعب ليس سهلاً فحسب، بل من الأمور التي يشتاق ويتوق إليها، لذا نجد عقبات كثيرة ومشاكل متعددة تعترض طريق العلماء، إلا أنهم في البداية يقومون بتجاوزها عقبة عقبة إلى أن تسهل لهم الأمور ويحصلون على التوفيق في طلب العلم، وفي هذا المجال نقل أحد الأطباء الذين قاموا بعلاج أحد العلماء الكبار أنه عندما أصيب بمرض شديد في عينه، قال له الطبيب: إنّ دواءك في ترك القراءة ومطالعة الكتب، فقال العالم: إذا مر عليَّ يوم واحد من دون قراءة ومطالعة للكتب سأموت، لأنّ دوائي هو المطالعة والقراءة والتحقيق، أي أنّه أصبح يشبه السمكة إذا أخرجت من الماء فإنها تموت، وهو يمثل قمة التعلق والارتباط بالعلم والقراءة، وكذلك الحال في كل مجال من المجالات، وقد نبّه الله تعالى على هذا المطلب الجميل، فقال: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، إنّ التذكرة يمكن أن يستفاد منها بشرط أن يكون لدى المستفيد إرادة ومشيئة، لأنّ الله تعالى يهيئ الأسباب، ويأخذ بيد من أراد إلى الصواب، بشرط أن يكون قد اجتهد لله تعالى وتقرب إليه.

التذكر العملي.

حينما يقول الحق تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ أي، أنّ من يشاء ويريد سوف يصل، أما الذي لا يريد ولا يلتفت، بل يفر ويبتعد فلن يصل، وذلك نراه في العيان، إذ أنّ هناك أناساً يحققون إنجازات وتقدم في أي مجال، سواء كان مادياً أو روحانياً أو قيمياً أخلاقياً أو علمياً أو فنياً، وكل ذلك يرجع إلى الإرادة والعزيمة والاستمرار والصبر، إذْ أنّ الإنسان إذا صبر ظفر، وقد يواجه في البداية صعوبات وعقبات فيقف بعض ضده ويحاربه، وقد يكون ذلك من أقرب الناس إليه، لكنه إذا امتلك الإرادة الصلبة سوف يتراجع من يقف ضده عنه، والصلابة والإرادة هي التي عبَّر عنها الحق تعالى بقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ لأنّ الإشاءة سوف يتذكرها، وليس في يوم القيامة، بل في الحياة الدنيا،

حيث تصبح حاضرة لديه وهذا المضمون ذكره أمير المؤمنين ع في خطبة المتقين: {عظُمَ الخالقُ في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون }[١]، هذا هو معنى ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾، وليس كل شخص لديه هذا النحو من التذكر العملي، الذي يمكن للإنسان أن يجريه لاختبار حالة التذكر للآخرين من خلال عرض الباطل عليهم، وسيرى أنّ هناك من يتجاوب معه ويخوض فيه وهناك من يجتنبه، فإذا كان مؤمناً متذكراً فلن يخوض فيه بل سيسعى للتخلص منه وعدم الوقوع فيه.

المشيئة بين الله والإنسان.

بقي في الآية شيء هو أنّ المشيئة هنا يمكن أن نجعلها راجعة إلى الله تعالى، أي، فمن شاء الله تعالى أن يتذكر ذكر، ويمكن أن نجعلها راجعة للإنسان، وهذا ما فسرنا به المشيئة آنفاً، ولا تنافي بين المعنيين، إذ يمكن أن تكون راجعة للإنسان ويمكن أن تكون راجعة لله تعالى، ولكن إذا أرجعنا المشيئة لله تعالى تكون بمعنى أنّ جميع الأشياء مرجعها إلى الله تعالى، القدرة والنعم وغير ذلك كلها من عند الله تعالى، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾[٢]، أي لا يوجد شيء في الوجود إلاّ ويرجع إليه تعالى، غير أنّ الله تعالى هو الذي يشاء للإنسان، ومشيئته تعالى للإنسان ليست اعتباطية، بل وفق حكمة يرتئيها، كما أنّ هناك أسباباً وأسساً حتى يشاء الله تعالى للإنسان الهداية، ويكون متذكراً، روي عنه ص عن الله تعالى: {من طلبني وجدني}[٣]، أي الذي يريد الله تعالى يصل إليه، ومن يريده تعالى سيهيئ أسباب الوصول إليه تعالى.

---

[١] نهج البلاغة خطب الإمام علي (ع) ج٢ ص ١٦١ .

[٢] النساء: ٧٨.

[٣] قال أبو الدرداء لكعب الأحبار: أخبرني عن أخص آية في التوراة؟ فقال: يقول الله عز وجل: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم لأشد شوقا. قال: ومكتوب إلى جانبها: " من طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني " فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله (ص) يقول هذا. (ميزان الحكمة للشيخ الري شهري ج٤ ص ٢٧٩٦).

مشيئة الله متعلقة بالموجودات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

إنّ مشيئة الحق تعالى لها دخل في تحقق أي أمر من الأمور في هذا العالم، ولا يمكن أن يحدث في الكون شيء لا يريده الله تعالى، إذِ الأمور مربوطة بمشيئته تعالى.

وسنوضح هذه النقطة بشيء من البيان خلاصته: أنّ من أراد التذكر للآخرة والاهتداء إلى الصراط المستقيم فإنّ إرادته ومشيته وفعله مربوط بإرادة الله تعالى وبمشيئته تعالى، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾[1]، وإذا كان الأمر مربوطاً بإرادة الله تعالى، فإن تعلق مشيئة الإنسان بفعلٍ فيه خير ومنفعة وآخر فيه سوء وقبح يرجع إلى إرادة الإنسان.

الإرادة التشريعية والتكوينية.

وهنا سؤال هام، كيف تكون إرادة الله تعالى لها دخل في تحقيق الشيء السيئ تارة والحسن تارة أخرى؟

هذا مطلب يحتاج أن نفهمه بدقة، إذ أنّ الله تعالى لا يشاء للإنسان إلاّ الخير ولا يريد له إلاّ الحسن الطيب، غاية الأمر في بعض الأحايين تكون إرادة الإنسان متعلقة بالشيء الخبيث السيئ، وحينئذٍ فإن الله تعالى لا يريد له ذلك الأمر السيئ، لكنه تعالى لا يجبره على تركه، فهو تعالى لا يريد للإنسان شرب الخمر أو الزنا أو عقوق الوالدين أو غيرها من المعاصي والذنوب، لأنه تعالى لا يريد من الناحية التشريعية أن تصدر المعاصي من الإنسان، أما من الناحية التكوينية، فلا يمكن أن يقع ذلك الشيء، لأنّ الأمور خاضعة لقدرة الله تعالى وهيمنته ومشيئته، والفعل مربوط بأسبابه والله تعالى أعطى الإنسان القوة والقدرة، ومنحه الاختيار في صرفها فيما يشاء.

وكي يتضح المطلب، نقرّبه بمثال: لو كان هناك والد له ولد، ويريد أن يوزع المال على أولاده بالسوية، وهو يعرف أنّ بعض أولاده سيخسر المال، وسيذهب المال من بين يديه،

---

[1] الإنسان: ٣٠.

لكنه يعي أيضاً أنه لو لم يعطه لكان ظلماً في حقه، لكونه أعطى إخوانه ومنعه، والوالد ينهى جميع أولاده عن صرف المال فيما يعود عليهم بالخسران، ويحضهم على صرفه فيما يعود عليهم بالنفع، لكنه يعلم أنّ أحد أولاده سيصرف الأموال فيما يعود عليه بالضرر، وهنا طبقاً للحكمة يمكنه منع ولده من المال، لكنه لو منعه سيكون قد ظلمه، وبالتالي سيشعر الابن بعدم المساواة، كما أنه لو أعطاه وهو يعلم بتصرفاته، لا يقال إنه أجبره، بل يقال إنه منحه الخير ونهاه عن السوء، لكنه صرف المال الذي أخذه من والده في السوء، كذلك الأمر هنا، فإن الله تعالى منح الإنسان جميع النعم ونهاه تشريعاً عن صرفها في السوء والمنكر، وهو تعالى نهاه تشريعاً، وليس تكويناً، لأنه من الناحية التكوينية إذا لم يرد الله تعالى لأحدٍ أن يفعل شيئاً فلا يمكنه أن يفعل ذلك أو يقوم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]، لا يستطيع أحد أن يتخلف عن إرادة الله تعالى، ولهذا، عندما نقول: (إنّ الله تعالى لا يريد السوء) فذلك يعني أنه لا يريده تشريعاً، ويريد الخير والصلاح تشريعاً أيضاً، أما تكويناً فأصل الإرادة والمنحة والقوة والخير والنعم أعطاها الله تعالى للجميع، قال تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[2]، فعطاؤه تعالى للجميع، وهو عالم بمن يصرف نعمه في السوء وبمن يصرفها في الخير.

ويمكن تلخيص ما تقدم بأنه تعالى لا يريد من الإنسان الطالح والصالح إلاّ الخير، غاية الأمر أنّ إرادته هذه التشريعية تطابق فعل الإنسان للخير، لأنّ الله تعالى يريد من تشريعه الإتيان بالعمل الصالح واجتناب العمل الطالح والمعاصي، والإنسان إذا أتى بالسوء أو المعصية فلا يعني ذلك أنه غلب الله تعالى، إذ أنّ الله تعالى طلب منه أن لايأتي بالسوء، لكن

---

[1] يس: ٨٢.

[2] الإسراء: ٢٠.

الطلب تشريعي وليس تكوينياً حتى يكون هو غالب في فعله للحق تعالى، ومن الواضح وجود فرق بين الطلبين التشريعي والتكويني.

حقيقة المشيئة الإلهية.

أبانت الآية المباركة المشيئة الإلهية، وهي خاتمة لسورة المدثر، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾، وعليه فلا يمكن لأحد أن يتذكر إلاّ بمشيئة الله تعالى، لأنّ جميع القدرات جائية منه تعالى، وهو تعالى إذا لم يمنح القدرة والنعمة لأحدٍ فلن يستطيع التذكر، لأنه يتذكر بنعم الله تعالى، ويطيع بنعمه أيضاً، بل ويعصي بنعمه تعالى.

وقد أوضح المقطع الآخر من الآية حقيقة المشيئة الإلهية، وماهية الأمر المرتبط بها، قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾، فهو تعالى يشاء لك أن تكون من الأتقياء الصالحين، وهي مشيئة تشريعية لا دخل لها بقسر المكلف وجبره على الفعل، لأن الفعل يرجع إلى اختيار الإنسان ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾، فما يشاؤه تعالى لك هو التقوى، التي تتعلق بكل ما يوصل إلى الخير والعاقبة الطيبة، لأنّه المنعم الرحمن الرحيم.

وإذا كان الله تعالى هو ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ فما يشاؤه للإنسان هو التقوى، أي يكون متقٍ في كل أحواله، كما أنه تعالى هو أهل المغفرة، أي أنه حتى بعد أن يُذنب الإنسان فإنه تعالى يريد منه أن يصرف النعم التي أنعم بها عليه في تقواه وفي وصوله إليه، وإذا صرف الإنسان بعض نعم الله تعالى في معصيته تعالى يشاء الله تعالى له أن يستغفر وينيب ليغفر له، بعد أن صرف نعم الله تعالى في السوء والمعصية، فإرادة الله تعالى للإنسان أن يكون صالحاً وواصلاً إلى درجات عالية، وإذا عصى ثم تاب ورجع إلى الله تعالى غفر له وتاب عليه، بل سيبدل سيئاته حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[1].

[1] الفرقان: ٧٠.

مشيئة الله رحمة إلهية.

هناك مطلب جميل ينبغي الالتفات إليه، وقد ركّز عليه العرفاء وعلماء الأخلاق، وهو أنّ الله تعالى يشاء للإنسان الخير، ويشاء له أن لا يقترب من المحظور ولا يرتكب المعصية، وإذا صدر الخير من الإنسان فيرجع ذلك لكون الله تعالى شاء له فعل الخير ومنحه النعم، ثم إذا صرف الإنسان النعم فيما يرضيه تعالى فإن المنة والمحمدة والثناء والشكر كل ذلك يرجع إلى الله تعالى، لأنه لا توجد لدى الإنسان قدرة مستقلة بذاته، والله تعالى هو الذي أعطاه القدرة وهو باختياره يصرفها فيما يرضي الله تعالى، لكن مصدرها هو الله تعالى وبتوفيق منه، فهو تعالى امتنَّ على خلقه بذلك، ومن الضروري على جميع من صدر منه عمل صالح أن يثني على الله تعالى أحسن الثناء، ويشكره تعالى بأبلغ الشكر، لأنه لولا التوفيق منه تعالى لما تمكن الإنسان من ذلك، قال إمامنا زين العابدين ع في مناجاته الرائعة المسماة بمناجاة المطيعين: "فآلاؤك جمة، ضعُف لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة، قصُر فهمي عن إدراكها فضلاً عن استقصائها، فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر؟ ! فكلما قلتُ لك الحمد، وجبَ علي لذلك أن أقول لك الحمد" [١].

ارتباط التذكر بمشيئة الله.

وقد جاء هذا المعنى للتذكر في سورة الفاتحة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[٢]، أي أن الإنسان عندما يُوفق للعبادة، من الذي وفقه لها؟ تبين الآية أنّ الاستعانة تعني أنّ ما صرفناه من حولٍ وقدرة وطاقة جاءنا من الله تعالى، وهو الذي وفقنا لصرفه في الطاعة، لذا فإن على الإنسان المؤمن أن يستعين بالله تعالى حتى يصل بالعبادة والاستعانة إليه تعالى، فالخير من الله تعالى ويرجع إليه تعالى، وإذا فهمنا هذه المعاني اتضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾، أي لا يمكن تذكر الآخرة وتذكر الاتعاظ بآي القرآن الكريم وتذكر العذاب وجميع ما يعود بالنفع والخير في الدنيا والآخرة إلا إذا شاء الله تعالى ذلك، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ

---

[١] الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين (ع) ص ٤٠٩.

[٢] الفاتحة:٥.

﴿ ٱللَّهُ ﴾، فمشيئته تعالى لها ارتباط في تحقق الأمور السابقة، وهو تعالى يشاء الخير دائماً ولا يشاء السوء، فكيف إذن يصدر السوء من الإنسان؟!

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1]، أي أن نفس الإنسان هي مصدر السوء، لأن الله تعالى لا يريد أن تصدر السيئة من الإنسان، لكن قد تغلب عليه الشقوة وتغره الأماني ويسول له الشيطان، فيصرف النعم الإلهية في معصية الله تعالى.

الله تعالى أهل التقوى والمغفرة

الآية الشريفة ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾، في غاية البلاغة، لأنها تبين أنّ الله تعالى يريد للإنسان الخير وأن يصل إلى التقوى، لكونه تعالى أهل لإرادة الخير، فلا يكون إلاّ منه وبتوفيق من لدنه، والاستعانة بالله تعالى للوصول بنعمه إليه، وذلك ما يفيدنا في السير التكاملي.

إنّ الاستعانة بالله تعالى في الوصول للتكامل مطلب هام، لما يترتب عليه من آثار كبيرة في حياة الإنسان، ويتضح هذا بجلاء فيما جرى بين الله تعالى وبين أيوب النبي الصابر، إذ أنّه ع نبي وصابر وقد ابتلاه الله تعالى بمرض مدة طويلة من الزمن، ورد في رواية طويلة عن الإمام الصادق ع حيث سئل فيها عن بلية أيوب ع وذكر الحوار بينه وبين الله تعالى:{ قال أيوب: يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجتي، فبعث الله إليه غمامة يخاطبه فيها، فقال تعالى: يا أيوب أدل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم، وها أنا ذا قريب ولم أزل، فقال: يا رب إنك لتعلم أنه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة إلا أخذت بأشدهما على نفسي، ألم أحمدك؟ ! ألم أشكرك؟! ألم أسبحك؟! قال: فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان: يا أيوب من صيرك تعبد الله والناس عنه غافلون؟ وتحمده وتسبحه وتكبره والناس عنه غافلون؟ أتمن على الله بما لله فيه المنة عليك؟ قال: فأخذ التراب ووضعه في فيه، ثم قال: لك العتبى يا رب، أنت فعلت ذلك بي}[2].

---

[1] النساء: ٧٩.

[2] بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج١٢ ص ٣٤٣.

هذا حوار يبين صبر الأنبياء ع خصوصًا أيوب ع، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى نبهه ع إلى مقامه عند الله تعالى لكونه نبياً له درجة عنده تعالى، ولا ينبغي له أن يُعدد أمام الله ما قام به من عمل صالح أو عبادة، لكون ما يصدر منه بنعمة من الله وبتوفيق منه تعالى، فهو المنعم حقيقة.

وهو تعالى يريد أن يبين أنّ الأمور تجري في المجرى الحسن الطيب والخير وما فيه نفع للإنسان، وذلك لكونه ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

وعندما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أفصح عن جميع ما تقدم من حقائق ترتبط بالإنسان من جهة، وبمشيئته تعالى وقدرته من جهة أخرى.